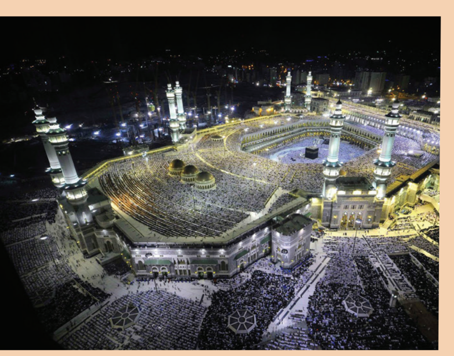
معاناة الحجيج بين المشقة والرهق

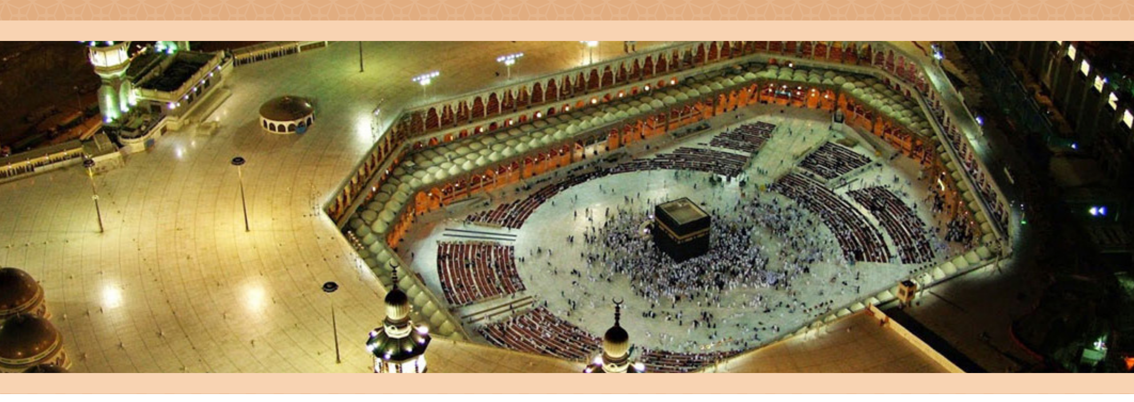
(خواطر حاج عام 1439هـ)







الدكتور الوليد آدم مادبو



معاناة الحجيج
بين المشقة والرهق

(خواطر حاج عام 1439هـ)

دكتور الوليد آدم مادبو

معاناة الحجيج
بين المشقة والرهق

(خواطر حاج عام 1439هـ)

دكتور الوليد آدم مادبو



معاناة الحجيج
بين المشقة والرهق

(خواطر حاج عام 1439هـ)

دكتور الوليد آدم مادبو

في الوقـت الـذي يسـعى فيـه كل فريـق مـن مسـئولي اللجـان المنظمـة في الـدوري البريطانـي لكـرة القـدم في هـذا الصيـف لعـام 2018 ليبـرز حجتـه لزيـادة أسـعار تذاكـر المباريـات أو إنقاصهـا، يبـدو أن كلا الفريقيـن متفقـان علـي أن الهـدف هـو تقديـم خدمـات أفضـل للجمهـور، بحيـث لا يكـون تحسـين الخدمـات لفئـة معينـة، على حسـاب تدنيهـا لـدى فئـة أخـرى، ومنطلقـان مـن مبـدأ أخلاقـي عالـي ورؤيـة إنسـانية سـامية تسـعى لجعـل حضـور مباريـات كـرة القـدم متاحـاً للجميـع. تمامـاً كمـا يعمـل الفريقـان، قـدر الإمـكان، على عـدم حرمـان أي شـريحة مـن المسـاهمة في هـذا المنشـط المهـم بالنسـبة للشـعب البريطانـي، والتفاعـل إيجابيـاً مـع كافـة أعضائـه الذيـن يـؤدون وظيفـة اجتماعيـة قبـل أن تكـون رياضيـة. السـؤال بالنسـبة لهـم ينحصـر في الآتـي: كـم مـن الزيـادة يمكـن أن تُقتـرح بحيـث لا يؤثـر ذلـك على الحضـور وإحسـاس شـريحة مـن المواطنيـن بالحرمـان؟ هـذا حـال تعاملهـم مـع المنشـط الرياضـي، مـاذا عـن تعاملنـا مـع الحـج كأعظـم نـداء ربانـي؟

حُـرم كثيـر مـن المسـلمين مؤخـراً مـن أداء شـعيرة الحـج مـن جـراء اعتمـاد بنـد «الحـج السـياحي» و «الحـج المميـز» و «الحـج الفاخـر» (الـذي تتـراوح تكلفتـه بيـن العشـرة آلاف ريـال والعشـرة آلاف دولار لغيـر الخليجيـن)، وحـج المسـئولين والدسـتوريين، والمتنزهيـن الآخريـن مـن بـلاد المسـلمين، الذيـن ليـس لهـم حاجـة إلـى الله ولا يرغبـون في رضوانـه. مـا الـذي فعلـه هـؤلاء الموظفـون كـي يسـتحقوا حجـاً «مجانيـاً» أولـى أن تُدعَـم بـه خدمـات أنـاس كرسـوا حياتهـم لخدمـة الوطـن والديـن، وادخـروا أمـوالاً ليحجـوا مـن عـرق جبينهـم؟ مـا هـي الأسـس المبدئـة لهـذه السياسـة - سياسـة تصنيـف الحجيـج؟ هـل هـي ريعيـة ربحيـة بحتـة أم أنهـا مؤسسـية تنظيميـة، أم الاثنـان معـاً؟ كيـف يؤثـر ذلـك على حكمـة مشـروعية الحـج، الشـعيرة الوحيـدة التـي أُلغِيَـتْ فيهـا كل سـبل التفـاوت، كـي تتحقـق الوحـدة الشـعورية للأمـة، ويحـس الـكل برهبـة الموقـف، ويستشـعر عظمـة الامتثـال يومـاً للواحـد القهـار؟

لاحظـت أنَّ متوسـط العمـر في الحـج قـد انخفـض مقارنـة بالسـنوات الماضيـة، وأنَّ هنالـك شـباباً متوهجـاً ومنفعـلاً بالمناسـك، بيـد أننـي لا أدري كـم مـن هـذا التوهـج قـد يجـد طريقـه إلـى منافـذ الفكـر ومـدارج الـروح، أم أنـه سـيظل تدينـاً خامـلاً مثـل تديـن آبائهـم وأمهاتهـم -

الدين الذي يقود إلى امتثال واستكانة ولا يحرض على تحريك أيِّ تساؤلات؟ هل أحبطت التجارب اليمينية واليسارية هذا الشباب، فاعتزل المعترك ورضي «بإيمان العجائز؟» أم إنه أصبح واقعياً وارتضى العلمانية الوجودية، كوسيلة للتوفيق بين ما هو زمني وما هو روحي؟

بغض النظر عن قدرة هؤلاء الشباب، على التمييز بين العلمانية الوجودية وتلكم المؤسسية، فقد ضاعت قيم الرحلة الروحية واندثرت سمات المؤتمر الفكري العظيم، فلم يعد هناك استنهاض لوحدة شعورية، أو إعادة تقويم لمشروع فكري، إنما تخدير واستخفاف ودغدغة للعواطف، بشكلٍ لم يعد يجدي في زمن التكتلات الإقليمية والتحالفات الإستراتيجية. لقد بات الرصيد الروحي العظيم مهدراً والعاطفة الدينية مندلقةً على الرصيف، تنتظر من يوظفها لصالح المشاريع الاستيطانية أو الإرهابية. أكثر ما أخشاه هو تسرب الشِّرْكِ إلى هذه العبادة العظيمة مرة أخرى، فيصبح عبادةً وثنية بعد أن براه سيدنا إبراهيم وَبيَّن مناسكه سيدنا محمد - هذان الرجلان العظيمان والنبيان الكريمان اللذان وضعانا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

هل هذا هو الحج الذي أُفعم به قلب «برعي اليمن» ذاك الصوفي العظيم حتى فاض محبةً ولهج بقصيدته التي سار بها الركبان؟ رغم أنه لم يدرك أرض الحجاز حساً، بيد أن القلب وعى فجاد اللسان بمعانٍ عجز عن فهمها وإدراك كنهها الثقلان، فظلت معانيها تتجدد لستة قرون:

يا راحلين إلى منىً بقيادي	هيجتمو يوم الرحيل فؤادي
حرَّمتمو جفني المنام لبُعدكم	يا ساكنين المنحنى والوادي
سرتم وسار دليلكم يا وحشتي	العِيسُ أطربني وصوت الحادي
فإذا وصلتم سالمين فبلغوا	مني السلامَ أُهَيْلَ ذاك الوادي
وتذكروا عند الطواف متيماً	صبّاً براه الشوقُ والإبعاد
لي في ربى ظلال مكة مرهم	فعسى الإلهُ يجود لي بمرادي

لقـد اسـتحالت القيـم المعنويـة إلـى حيـل ماديـة، ولـم يتبـق غيـر وضـع تماثيـل العلـوج وزوجاتهـم وبناتهـم داخـل الكعبـة، وذلـك منـذ أن تواطـأ دعـاة السـلفية مـع الصهيونيـة والإمبرياليـة العالميـة، وعملـوا على قمـع الشـخصية الإسـلامية الحقيقيـة، فأحالـوا الديـن إلـى مسـخ ومخلـوق شـائه، لا هـو قـادر علـى النهـوض بأعبـاء الرسـالة الخالـدة، ولا هـو قانـع بالخنـوع فمـا زالـت فيـه نخـوة!

ألـم تقـول الميثولوجيـا أن الـلات والعـزّى كانـا رجـلاً وامـرأةً مـن أهـل الطائفـة، لـم تسـعفهما تقواهمـا فأطاعـا هواهمـا وزنيـا عنـد الكعبـة، ممّـا أغضـب الـربَّ فسـخط عليهمـا، وجعـل منهمـا صنميـن ظلـت قريـش تعبدهمـا حتـى فتـح مكـة؟ مـا هـو السـبيل لاسـتنقاذ الحنيفيـة الإبراهيميـة مـن دواعـي «الشـرك الأكبـر» المتمثـل في موالاتنـا لأعـداء الملـة وتملقنـا لعليـة القـوم - الذيـن هـم في الأصـل أسـافل الرعيـة- في كل وقـت وحيـن؟ لمـاذا نُصِّر على الاسـتمرار في خـداع أنفسـنا والتنكـر لذواتنـا، في الاعتقـاد بأننـا نتقـرب الـى الله زلفـى باتبـاع منهـاج أصبحـت عللـه واضحـة؟ إنهـا نكبـة ألقـت بظلالهـا على كل حياتنـا وسـتظل، مالـم نقـف وقفـةً صارمـةً مـع ذاتنـا ونعمـل على إعـادة تقويـم وجهتنـا، وإلا فـأيُّ نُصـرة للإسـلام وأيُّ هزيمـة للشـيطان وأعوانـه، يمكـن أن يحدثهـا هـذا «التديـن الخامـل» أو نقيضـه، «ذاك الثائـر» والمندفـع بـلا رويـة أو هـدي فكـري؟

وهنـا لا بـد مـن وقفـة مـع قولـه تعالـى: (لَيْـسَ عَلَيْكُـمْ جُنَـاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّـن رَّبِّكُـمْ فَـإِذَا أَفَضْتُـم مِّـنْ عَرَفَـاتٍ فَاذْكُـرُوا اللَّهَ عِنـدَ الْمَشْـعَرِ الْحَـرَامِ وَاذْكُـرُوهُ كَمَـا هَدَاكُـمْ وَإِن كُنتُـم مِّـن قَبْلِـهِ لَمِـنَ الضَّالِّيـنَ) (سـورة البقـرة - الآيـة 198).

سـأرجئ الحديـث عـن الجانـب الفلسـفي الفكـري ، وأركـز في هـذه السـانحة على الجانـب الإجرائـي المؤسسـي للحـج. رغـم الارتبـاط العضـوي بيـن مـا هـو إجرائـي ومـا هـو مبدئـي/ رؤيـوي في أي عمـل تخطيطـي. فغيـاب الموجـه الفلسـفي والفكـري لنشـاط مـا، أو تمثلـه بصـورة سـلبية، يخلـق إشـكال مؤسسـياً يحـول دون تحقيـق الأهـداف الإسـتراتيجية العليـا، ويجعـل مـن الصعـب، إنْ لـم نقـل مـن المسـتحيل، إحـكام دورة تصميـم وتنفيـذ السياسـات؛

لا سيما توفير سبل التقييم المنهجي والمتابعة الدورية، والعمل على تقنين أطر الشفافية المحاسبية، فتح قنوات الاتصال بين الجهات (التواصلية)، تبادل المعلومات (التبادلية)، ومشاركة كافة الفرقاء في عملية اتخاذ القرار (التشاركية).هذه الاشتراطات الثلاثة للحوكمة (الشفافية والمحاسبية والاعتراف متمثلاً في التشاركية والتبادلية والتواصلية)، يتم اختصارها في عبارة (TAR: transparency, accountability, & recognition). تكاد تكون كل الإشكالات التي سأتحدث عنها، نابعة من اختلال في هذا التوازن، الذي يضمن حيوية المؤسسة وفاعليتها. وغيابه يعني بالضرورة تخبطها وفي نهاية المطاف انهيارها.

لولا أن وزراً أثقل ظهري، وفريضة اقتضت صحبتي لزوجتي، لم أكن أنوي أن أحج البيت الحرام للمرة الثانية، وقد أديت الفريضة قبل ربع قرن من الزمان تقريباً، ولزم أن أفسح المجال لبليون ونصف مسلم يتوقون للتعلق بأهداب الكعبة. كما وجب أن أرتب أولوياتي بطريقة ترعى حرمة المسلمين، التي هي أهم وأعظم، وحاجتهم التي تسمو فوق حاجتي للتنزه الروحي. لا أدري كيف تناسيت واقع الاضمحلال الإداري والأخلاقي الذي أصاب بلادي، والذي تخطى حدودها الجغرافية (الواقع أن كل واحد منَا مسكون بجزء ولو يسير بهذه الخصال الذميمة، إذا لم تكن رئته قد تلوثت - بل تسرطنت - وأصابها هذا الفيروس المميت)، أو لعلي توهمت بأننا برئنا من علل الإنقاذيين وفضيلتهم الكبرى التي تمثلت في الكذب. لعلي «دَقَسْت» فلم أتفحص كلمات مسؤول الحملة ولم أدقق في وعوده، أو لعلها لهفة الوصول إلى الأماكن المقدسة.

عزمت على الحج في وقت متأخر، فلم يكن لديَّ فرصة غير التقديم «للحج السياحي!» (لا تَغُرّنّك هذه العبارة الجاذبة والمستفزة في آن، فبعد قليل ستكتشف الكثير المثير)، نظرت في مراتب «الحج السياحي» فاخترت المرتبة الوسيطة (ب). بيد أنني اكتشفت منذ الوهلة الأولى - وذلك مباشرة بعد أن وضعت حقائبي في غرفة الفندق بالمدينة المنورة - أنَّها تصنيفات هلامية لا تخضع لأي أسس موضوعية، فقط ما يعتقده منظم الحملة، الذي سأختار له اسماً مستعاراً أو اسماً حركياً كي لا أحرجه، وهو (يونس شلبي)

الممثـل المصـري الظريـف، الـذي يغضبـك وسـرعان مـا يسـترضيك ويفرحـك. فتكـون على شـأن هـذه الميلودراميـة حتـى ختـام المسـرحية، هـذا إذا لـم تصبـك سـكتة قلبيـة، قبـل أن يسـدل السـتار على المشـهد الدرامـي.

تجـرأ أحـد الحجـاج وسـأل مسـؤول الاسـتقبال عـن مرتبـة تصنيـف الفنـدق، فقـال لـه الموظف بـكل أمانـة «بالدفـرة عمـل 2 نجـوم.» لعـل القـرب مـن الحـرم المدنـي قـد أسـعفه، رغـم رداءة الغـرف وسـوء الخدمـات وتسـرب رائحـة الصـرف الصحـي إلـى الغـرف! لا يفوتـك أنَّ «يونـس شـلبي» اختـار لـه ولأسـرته غرفـة في الطابـق ال 13 لا تتسـرب إليهـا هـذه الروائـح النتنـة. لاحظـت لاحقـاً أن تدنـي الخدمـات جـاء نتيجـة عوامـل كثيـرة، مـن أهمهـا إدراج آخريـن غيـر مسـتحقين، مثـل الزوجـة والأبويـن والأبنـاء. هـؤلاء يضمهـم منظـم الحملـة دونمـا حيـاء. واذا سـاءت الأمـور وقفـت زوجـة الوكيـل لتقـول للنـاس «أعفـوا لفـلان ولا تدعـو عليـه في الحـج.» مـا هـذه البلاهـة؟

هـذه «السـيدة الفاضلـة تـدري جيـداً أنّهـا تحـج «كيـري» (مجانـاً) مـن أمـوال هـؤلاء الغلابـة كل عـام، هـذا إذا لـم تصطحـب معهـا أمّهـا وخالتهـا وبنـت جارتهـا. تذكرنـي هـذه السـذاجة بحيثيـة حصلـت لـي مـع أحـد أعـوان الإنقاذييـن، قـال لـي - وقـد رآنـي أجتهـد ولا أكاد أحصـل على حصـة تدريبيـة ذات قيمـة، وذلـك قبـل أعـوام عندمـا كنـت أعمـل مستشـاراً في البلـد المنكـوب: «نحـن يـا دكتـور بنحَصِّـل عطـاءات فيهـا قرشـين حلـوات، بـس يكـون في علمـك نحـن بنقسـم مـع الـوزارء، و«التقـي» منهـم بنضـع لـه الفلـوس في شـنطة، لأنـه لا يحبـذ مـس الحـرام ويفضـل أن تنزلهـا الخادمـة أو الزوجـة مـن الضهريـة نهايـة الـدوام!» حالـة أخطـر مـن التحلـل، هـؤلاء المتأسـلمون يعتقـدون أن الآخـرة إشـاعة.

قلـت لأحـد أقربائـي، دُعـي ليعمـل في برلمـان الإفـك الـذي يصـادق على أقـوال الشـاويش مدعـي الإسـلام «كامـل الدسـم»: «ألا تخشـى أن تُبعـث يـوم القيامـة مـع شـهداء الـزور؟». قـال لـي بالحـرف الواحـد: دا لـو قُمْنَـا. يعنـي ببسـاطة هـم عبـارة عـن ملاحـدة، «مـش حتـى منافقيـن متسـترين بالإسـلام.» لـو أسـقطنا جميـع التفاصيـل، ولـم نؤمـن بأقاويـل الفقهـاء

وادعــاءات الوســطاء، فهــم ســيناكفون في الحقيقــة الواحــدة التــي لا مــراء فيهــا، والتــي **تمثلـت جليـاً في قولـه تعالـى: (وَأَنَّ السَّـاعَةَ آتِيَـةٌ لَّا رَيْـبَ فِيهَـا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَـثُ مَـن فِي الْقُبُـورِ) (سـورة الحـج - الآيــة 7).**

لا يـكاد الحـاج يتجـاوز عقبـة، حتـى يتهيـأ لمفاجـأة تفسـد عليـه صفـوه، وقـد تبطـل عليـه حجـه إذا لـم يضبـط أعصابـه. مثـلاً، عندمـا تعاقدنـا مـع «يونـس شـلبي» قـال إنَّ الفنـدق الـذي حجـز لنـا فيـه بمكـة يقـع في «الدائـرة المركزيـة»، بمعنـى أنـه على مرمـى حجـر مـن الحـرم، أو أنـه يسـهل الوصـول إليـه بالأرجـل. واقـع الأمـر أنـه لـم يكـن فندقـاً، بمعنـى أنـه لا يحمـل ترخيـص فنـدق، فليـس لديـه حتـى مجـرد لافتـة، وقـد اسـتنتجت أنـه مجـرد نُـزل أو بيـت ضيافـة، يبعـد مـن الحـرم 5 كيلومتـرات، في منطقـة الحجـون بالتحديـد، لمـن يعـرف أحيـاء مكـة. لـم يعبـأ مسـؤول الحملـة بمجـرد توفيـر حافلـة لتقريـب المسـافة لكبـار السـن، النسـوة وأصحـاب الأعـذار، إنمـا اسـتمرأ الكـذب كعادتـه وقـال لهـم «هـداك الحـرم بتشـاف بالعيـن!» يـا راجـل، دا كلام، «هـو السـاعة بتاعـت الحـرم بتتشـاف مـن مدينـة جـدة بالعيـن.» أشـد مـا أدهشـني عزيمـة هـؤلاء، وإصرارهـم على المشـي 10 كيلومتـرات ذهابـاً وإيابـاً مـن و إلـى الحـرم لأداء جميـع الصلـوات، ولكنَّهـم المسـلمون والمسـلمات والمؤمنـون والمؤمنـات في صلابتهـم وكبريائهـم فـلا غرابـة ولا عجـب.

إن أكبـر امتحـان للرجـل أو المـرأة، أن يوضـع في معيـة قائـد (حملـة) كـذّاب، لأنـك إن تحاملـت شـققت على نفسـك، وإن تخاذلـت اتهمـت نفسـك وأذهبـت مروءتهـا. تتحمـل الأسـرة مـا قـدره 100 دولار في المتوسـط إضافـةً لمـا تدفعـه للحملـة، كـي تتواصـل وتـأكل طعامـاً بمسـتوىً معقـول في اليـوم. مـاذا عـن الشـخص الـذي دفـع كامـل مدخراتـه، ولا يقـوى على تحمـل تكلفـة إضافيـة، ولـو كانـت شـراء كـرت لتعبئـة شـريحة الهاتـف للتحـدث مـع أسـرته وطمأنتهـا؟ قـد يأتـي الحـاج فـلا يجـد طعامـاً، وقـد وعـده «يونـس شـلبي» بالبوفيـه المفتـوح فلـم يجـد غيـر «الفـول المطـروح» «وصحـن الطحنيـة المشـلوح»، بـل إنَّ معظـم أعضـاء الحملـة كانـوا يذهبـون لـلأكل في المطاعـم المجـاورة، ولـم يكلفـوا أنفسـهم مشـقة التكلـم مـع هـذا الشـخص، الـذي دفعـه الجشـع لاعتمـاد عـددٍ مـن الحجـاج أكبـر بكثيـر مـن

حُرم كثير من المسلمين مؤخراً من أداء شعيرة الحج من جراء اعتماد بند «الحج السياحي» و «الحج المميز» و «الحج الفاخر» (الذي تتراوح تكلفته بين العشرة آلاف ريال والعشرة آلاف دولار لغير الخليجين)، وحج المسئولين والدستوريين، والمتنزهين الآخرين من بلاد المسلمين،

العـدد الـذي تعاقـد بـه مـع صاحـب المطعـم. فهـل هـذه فنِّيـات إنقاذيـة أم انحرافـات سـلوكية بشـرية؟ الاثنـان معـاً. لـم نكـن لننحـدر إلـى هـذا الـدرك مـن السـوء قبـل الإنقـاذ - السـلطة المشـؤومة التـي جثمـت على صـدر الشـعب السـوداني منـذ ثلاثـة عقـود - لكـن الاسـتهبال كان خصلـةً كامنـة فينـا، وسـيظل مـا لـم نعمـد إلـى تقويـم ذواتنـا المنحرفـة.

مثـلاً، لقـد بحثنـا، أنـا واولاد حجّتـي واذا شـئت بعثتـي، في شـأن الاكتظـاظ الـذي أعـاق الكثيريـن مـن الحجـاج، عـن التحـرك داخـل الخيمـة في منـىً للتعبـد أو لقضـاء حوائجهـم، فوجدنـا أن بعـض الحجـاج يسـتضيفون أهاليهـم أو أصدقاءهـم، مـن دون أن يراعـوا شـعور إخوانهـم الحجـاج، مسـتغلين الفوضـى التـي كانـت السـمة الرئيسـيّة للمعسـكرات السـودانية، ممـا جعـل فضاءهـا مرتعـاً للحجـاج «الكيـري» (غيـر المعتمديـن لـدى سـلطات الدولـة المضيفة أو حتـى أصحـاب الحملـة). حتـى إن المصـري أو الكاميرونـي لا يذهـب إلـى بنـي جلدتـه لأن معسـكرهم تحكمـه ضوابـط صارمـة، بمـا في ذلـك اسـتخدام المرحـاض، لكنـه يأتـي إلـي إخوتـه السـودانيين، فنسـبة كبيـرة مـن الحجيـج متواجـدة في الشـوارع، ولا تجـد مرافـق في منـى أو عرفـة. تحمـس مديـر الحملـة في يـوم مـن أيّـام منـى، وأراد طـرد أحـد الحجـاج، بعـد أن اشـتكي إليـه البعـض عـدم توفـر مـا يتوسَّـدونه أو فسـحة ينامـون فيهـا. وكمـا بيّنـت لكـم فهـو فهلـوي ممـا يوعـز بأنـه رجـل فكـه، لا تسـتطيع كرهـه وإن اغتظـت منـه، ولا يمكنـك أن تضمـر غيـر محبتـه. فقـد تراجـع بفنيـة عاليـة واحتضـن الرجـل وقبلـه في رأسـه بعـد أن اكتشـف أنّ هـذا «المسـكين» قـد دفـع لـه 700 الـف جنيـه، قيمـة تفويـج 5 حجـاج (سـد بيتـو حسـب تعبيـره وأربعـة رجـال مـن أقربائـه).

هـذا إخفـاق إداري مريـع طـال الهـرم مـن أعـلاه إلـى أسـفله، وانحطـاط قيمـي أنـاخ بكلكلـه على جسـد الوطـن الوجيـع. ولـذا فقـد قـررت منـذ اللحظـة الأولـى، التعامـل مـع هـذه الحالـة الكارثيـة بإيجابيـة فعكفـت على تدويـن ملاحظاتـي البحثيـة على أمـل أن يطَّلـع عليهـا يومـاً صاحـب ضميـر، علمـاً بـأن المسـؤولين المنـوط بهـم مراقبـة أوضـاع الحجيـج، يتنزهـون في البوفيهـات ويتبرطعـون في صـالات «كبـار الـزوار. لـم أغتـظ مـن شـيء مثـل لبسـهم للإحـرام، وقـد كان الأحـرى بهـم أن يكونـوا متأهبيـن لتـدارك أخطـاء الموظفيـن الآخريـن، والاعتـكاف

على خدمـة المحرميـن. ولهـم في قـول الحافـظ بـن رجـب الحنبلـي أسـوة حسـنـة، فقـد قـال معزيـاً مـن لـم تتيسـر لـه سـبل الحـج:

من لم يستطع الوقوف بعرفة، فليقف عند حدود الله الذي عرفه

ومن لم يستطـع المبيت بمزدلفة، فلْيبت على طاعة الله ليُقَرّبه ويُزْلفَهُ

ومن لم يقدر على ذبح هدْيه بمنى، فليذبح هـواه ليبلغ به الُمنى

ومن لم يستطع الوصول للبيت لأنه بعيد،

فليَقصدْ رب البيت فإنه أقرب إليه مِنْ حبل الوريد

رغـم الإخفاقـات المؤسسـية المريعـة، إلا أن هنـاك شـعوباً كثيـرة، عكـف قادتها على تهيئـة المنـاخ المـادي لهـا ممّـا سـهل لهـا ادخـار طاقاتهـا للترقـي الروحـي والفكـري، فيمـا وجـد الآخـرون أنفسـهم محاصريـن بتحديـات جمّـة فأهـدروا الطاقـة تلـك في مقاومـة التدنـي النفسـي، واحتسـبوا لأن المعضـلات بالنسـبة لبعضهـم تـرد الـي القـدر - قدرنـا كـدا ويـش نعمـل - وليـس لأي منطـق إداري أو مالـي. والحـال بيـن العجـز والإفـلاس، فقـد يسـتحي المـرء أن يقـول أن أفـراد شـعبنا قـد ألِفـوا المهانـة، فلـم يعـودوا يسـتغربون سـوء المعاملـة، وإذا مـا لقـوا معاملـة حسـنةً فالأغلـب أنهـم يعجبـون، ومـن أنِـف منهـم فإنـه لا يفلـح في تمرير شـكواه عبـر قنـاة مؤسسـية، فإنهـا في الأصـل لا توجـد. رأيـت أناسـاً، بـل حجاجـاً، يقومـون بلهفـة إلـى الأكل، ويكسـلون عـن الذكـر بـل يغطـون في نـوم تحسـدهم عليـه الفيلـة، يسـتيقظون بنشـاط غزلانـي، وتسـمع لحركتهـم جلبـةً تزعـج القـردة، متـى مـا أُعْلـن عـن وضـع الطعـام على الطاولـة. هـذه لـم تـك يومـاً مـن سـماتنا. فقـد كنـا ولـم نـزل أصحـاب يقيـن، نتحـرك بتـؤدة ونتحفـز بكبريـاء لمعالـي الأمـور ولا تسـتفزنا صغائرهـا.

يمـر المـرء بالفقـراء في معسـكري منـى وعرفـة (إننـي أسـتخدم هـذا المصطلـح مجـازاً لأن

الفقير لا يملك مثل هذه الأموال الطائلة ليحج بها، لكن هذا الشخص الميسور سيكتشف ما أن يصل إلى المعسكر، أنه سُرق ولا حيلة له غير التبسم، فقد يقرر مندوب الحملة عدم إرجاعه)، فيشمئز من القذارة التي تحيط بمعسكرهم، يمر بالأغنياء (قد لا يكون بعضهم غنياً بالمعنى لكنه يحرص على الامتياز الذي يضعه في خانة الميسورين، وإن كان معسراً، من باب «يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون»، وهذا مرض قديم ابتليت به الأمة)، فيحسدهم على بلادتهم وبؤس آفاقهم، بل تفرغهم للأكل والشواء والتعرف على الوجهاء. يكون في علمك، المجموعات الديلوكس هي ديلوكس مِن حيث المرقد والمأكل والمشرب وليس التّذوق!

لا يوجد في هذه المعسكرات وُعّاظ مؤهلون، أو مرشدون تربويون مهمتهم الارتقاء بأفهام الحجاج ومخاطبة الجميع، فكلٌ حسب إدراكه. وإذا ما وُجد ذاك الواعظ فإنه سيلحظ تعطل قرائن الاستشعار لدى المتلقي، أو انشغاله بالجانب الفيزيولوجي، إمّا إسرافاً في حالة «الحج الفاخر»، أو إجحافاً في حالة «الحج السياحي»، الذي يبذل أفراده قصارى جهدهم في محاولة التغلب على المعاناة اليومية المتمثلة في صعوبة التنقل، الحصول على الأكل، أو الانتظار في الصف لقضاء الحاجة. (سألت إحدى الحاجات وهي في طريقها إلي السُفرة امرأةً مُسِنّة عن نوع الأكل الموجود، فقالت لها الأخيرة وهي في غاية الاشمئزاز «يا بتي، هو في شنو بلا الجغاميز بتاعت كل يوم»). وإذا ما وجد الحاج فرصة، فإنه لربما استغلها في متابعة الشمارات (الأخبار الفارغة) التي تبثها مختلف الجهات، ويتم تناولها بيسر في الوسائط الاجتماعية، سيما أنّ خادم الحرمين حفظه الله وبارك في عقبه، ما قَصَّر واهدى كل حاج وحاجة واحد غيغا أرسلت له مباشرة في أول أيام النسك!.

لا يختلف مدراء الحملات، من حيث البؤس الإداري وعدم الكفاءة المهنية، لكنهم يختلفون في طريقة تعاطيهم مع هذا العجز. إذا كان «يونس شلبي» يعتمد الكذب وسيلة لتغطية الفجوات المتعمدة وأحيانا غير المتعمدة- لأنّ القرارات الإدارية لدى موظفي الدولة المضيفة تشوبها أحياناً العشوائية والفجائية، التي تجعل أصحاب

الحمـلات يعجـزون عـن التنسـيق والتنويـر، فـإن «سـعيد صالـح» قـد يتمثـل الـورع أو يقـوم بتمثيـل بعـض الأدوار المسـرحية الأخـرى، كل ذلـك لتـدارك بعـض المواقـف الحرجـة، التـي هـي مـن صنـع أيديهـم جميعـاً، كأن يقبـل أحدهـم إضافـة شـخص لـم يـك مدرجـاً في برنامـج الإسـكان المعلـن أصلا، أو يدرجـه في اللحظـة الأخيـرة جشـعاً ومجاملـةً، لكنـه عِوَضـاً عـن مكاشـفة زملائـه الذيـن يلـزم التنسـيق معهـم أو مُناصحتهـم، يلجـأ إلـى المراوغـة أو يقـرر الاختفـاء تمامـا لسـاعات، عَـل المعضلـة تحـل نفسـها.

لحظـت هـذا الأمـر مـراراً، وانتبهـت إليـه، خاصـة عندمـا كانـت تكتـظ سـاحة الطعـام، وتزدحـم حتـى لا تـكاد تسـع لثلـث عـدد الحجـاج. حينهـا يهـرب كـي لا يُواجـه بشـكوى أو ملامـة. في أول يـوم لنـا بالمدينـة المنـورة وعنـد تقاطـر الوفـود تحمّـس «يونـس شـلبي» وتصـرف بصـورة «حِمْشَـة»، فعمـد إلـى السـفرة وألقـى بالأوانـي على الأرض تعبيـراً عـن سـخطه وعدم رضائـه بالخدمـة التـي يقدمهـا المتعهـد، أو هكـذا زعـم فأنـا لا أصدقـه. وإذا مـا حـدث الأمـر فهـو مجـرد مسـرحية لأن المتعهـد إنمـا يقـدم الخدمـة التـي عُهِـد إليـه بتقديمهـا لا أكثـر ولا أقـل. لا يفهـم مـن كلامـي أننـي أعتـرض على السـرقة، حاشـا وكلا!!، لكننـي أتوقـع مـن الـكل، يشـمل ذلـك وزارات الأوقـاف للـدول الإسـلامية والدولـة المضيفـة، تجويـد مواعيـن السـرقة. ألا تـرى أن في الأمـر خلـلاً فكريـاً ووجدانيـا؟ نحـن نتفكـر في طريقـة ضبطنـا لمواردنـا الماديـة، في الوقـت الـذي تُهـدر فيـه مواردنـا الروحيـة وتغلـق فيـه آفاقنـا المسـتقبلية؟ هـل باليـد حيلـة؟ نعـم. يجـب علينـا مواجهـة هـذا العبـث في كافـة المؤسسـات فـأي إبطـاء مـن هـذه اللحظـة فصاعـداً يعنـي، لزامـاً، الفنـاء.

كان العمانيـون معنـا في نفـس الفنـدق في المدينـة المنـورة، بيـد أنّ سُـفرتهم كانـت مختلفـة وتصرفاتهـم كانـت رزينـة نسـبة لعددهـم، ومظهرهـم كان أنيقـاً ومنضبطـاً. واذا أردت أن تعـرف لمـاذا هُمِّلنـا بهـذه الطريقـة وفِي هـذه المـدة الوجيـزة، فانظـر إلـى مليكهـم ومليكنـا، وإلـى نُخَبهـم ونُخَبنـا، ولـن تحـار حينهـا. لا أكاد أخفـي إعجابـي بهـذا الشـعب الـذي يعتبـر «برنجـي - أميـز» الشـعوب الخليجيـة، فهـو شـعب واقعـي ليـس لديـه أي أوهـام، غنـيٌّ لا يتفاخـر بأمـور ماديـة، ويعتـز في غيـر مـا كِبَـر بحضارتـه الإنسـانية، مُجِـدٌّ لا يتوانـى

عن التحصيل، أمين لا يَدَّخِر الفضل فيدعي مجهودات الآخرين، حيويٌّ لا يخشى التفاعل مع المتميزين، بل يسعى الاستفادة منهم، ووقور لا تستفزه الحادثات فيحصد الكوارثَ والملمات. حريٌّ بمن كانت هذه خصاله أن يزدهر.

قد نعلم أن الإدارة العامة للحج والعمرة اعتمدت 40 وكالة،40 وكالة «معتمدة»؟!! من اعتمدهم؟ وفق أي آلية؟ وبأي مواصفات؟ هؤلاء عبارة عن «مراسلات» يجهلون أبسط قواعد النظم الإدارية، وكثيراً ما يأخذهم نوعٌ من الرهبة حيال التعامل مع موظف الدولة المضيفة، الذي لا تحكمه لوائح أو قوانين إنما أمزجة ورعب من رؤسائه. فقد يقرر هذا الأخير إلغاء تصديق الوكالة لأتفه الأسباب، ولن يتراجع حتى لا يتهم بأنه ضعيف. إن كثيراً من المدراء هؤلاء لا يستمدون مكانتهم من تميزهم الإداري أو تفوقهم المهني - خاصة في دول الملح - إنما فقط مقدرتهم على «التفنيش.» هذا السلوك يخلق مناخاً من الرعب يستحيل معه إحداث تراكم معرفي، لأن الموظف الصغير لا يكون همه تقديم الرؤية السديدة، إنما فقط إرضاء تلك الشخصية المريضة.

لا يوجد إداريون في هذه الحملات إنما فقط جهلاء متنزهون، ومن عجب أنهم متأففون عن خدمة من دفعوا لمجيئهم إلى هذه البقاع الطاهرة. صحيح أن هناك أمية وتخلفاً حضارياً لدى الغالبية من شعوب المسلمين، بلادنا خاصة، لكن هذا لا يعطي أمراء الحملات وقادة المنظمات، مبرراً لإهمالهم و اضطهادهم. فلا بقاء لهؤلاء الأمراء وأولئك القادة إلا بهؤلاء الضعفاء: تصح هذه المقولة بالمنطق الغيبي (ألا بفقرائكم ترزقون)، وبالمنطق المادي (فمرتبات الموظفين أو حتى رشاهم من دافع الضريبة، المزارع أو الراعي). هل الأولى لموظف الحملة أو موظفتها، أن تلبس إحرامها وتعمد إلى التعبد بنسك وكأنها تؤدي الصلاة في غير وقتها، أم الأولى أن تهرع إلى الاتصال بالسلطات وتحثها على البحث عن العجوز التي ضلت طريقها ولم يُعْثر عليها إلا بعد ثلاث ليالٍ وقد أنهكها الجوع وأرَّق مضجعها الخوف والارتباك، بعد أن ضاع عليها أحد أركان الحج؟

بلغت النذالة يوماً بمدير حملتنا، واذا شئت مِحْنَتنا أن أبلغ الحجاج في رسالة مكتوبة

أرسلت بالواتسب، نصها كالآتي: «نذكر الحجاج الكرام بان الاطعام بفندق مكة سيبدأ من يوم غدا الجمعة وان وجبه الحجاج بالمخيم حتى العشاء اليوم ..المتعجلين الذين يغادرون عقب الغداء يتحوطوا لذلك ...مع الشكر» انتهي الاقتباس. (رغم إنها لم تُرْسَل إلي مباشرة فأنا لم أضُمَّن في مجموعته إذ أبلغته منذ اليوم الأول أنني لن أسكت على هذه المسخرة وسوف أبرئ ذمتي بتوثيق هذه المهزلة التي تسمى زوراً حملة. قال لي بعض الحجاج: «لماذا تريد أن تدوش رأسك- وقد رأوني أسجل ملاحظتي طيلة الفترة التي قضيتها بالمعسكر - فالحال كله من بعض»؟. قلت: هذه السلبية والروح الانهزامية هي التي سمحت لهؤلاء الأراذل أن يتسلقوا فوق رؤوسنا. ليس في السودان فقط، إنما في كل بقاع العالم العربي والإسلامي. فقد تطابقت ملاحظتي مع ملاحظات أخت فلسطينية وأخ عراقي وأخر جزائري وآخرين): لكأنه يريد أن يومئ بأنه وفر لهم طعام يوم، علماً بأن الكل قد اتبع أسلوب «المهارات الفردية» منذ اليوم الأول. بهكذا أسلوب يتم التعامل مع هؤلاء الفضلاء والبشر الضعفاء، الذين يفتقر بعضهم إلى أي حيلة مالية أخرى، وقد لا يحسنون التصرف في مثل هذه الظروف وذاك الوقت العصيب. «يا حليل ستات الكِسْرة والعصيدة فقد منعتهم سلطات الدولة المضيفة من بيع الطعام في منى لكنها لم توجد لهم بديلا.

على كلٍ، جزى الله إخواننا وجيراننا الليبيين (في المعسكر وفي الوطن) على حسن صنيعهم، فقد تبرعوا لإخوانهم السودانيين، المتأخرين غير المتعجلين، ببواقي المؤن التي رتبتها لهم حملتهم في حقائب يأخذونها متى شاءوا وأنّى أرادوا. هل أقعدت السودانيين طيبتهم عن المطالبة بحقوقهم، وتقصيهم لمطالبهم بصورة منهجية، أم أن عفويتهم - وإذا شئت سذاجتهم - هي التي شجعت حتى مدراء الحملات، دعك عن قادة الدويلات، الإجتراء عليهم؟ لا أدري. لكنني موقن بأن تواضع الشخص يجب أن لا يحملك على ظلمه، بل يجب أن يكون ذلك مدعاة لإنصافه. عموماً انا لا أطمح في الوقت الحالي، وبالكادر الذي رأته عيناي تصميم تطبيق (application) يزوِّد الحجاج بأدق تفاصيل الخدمات، مثل تقدير المسافات، وتحديد المواقع، وإن كان الأمر في غاية اليسر، كالتي توفرها حملات الحجاج الأمريكيين. لكنني أطمح إلى توفر الخدمات

بمقاييـس محليـة مُرْضيـة، تجعـل الإنسـان المسـلم، سـودانياً، مغربيـاً، فلبينيـاً، أو غيـره، يـؤدي مناسـك الحـج بكرامـة.

يجـب أن ننظـر في الكيفيـة التـي يمكـن أن تتـم بهـا ترجمـة هـذه الـروح التكافليـة، التـي التمسـناها في الحـج إلـى قيـم مؤسسـية تكـون سـبباً في نهضـة الأمـة، ومدعـاة لتعاونهـا لتحقيـق تنميـة مسـتدامة، تتكامـل فيهـا كل الطاقـات، بعيـداً عـن التنافـس ذي الأبعـاد الصفريـة، والـروح العدائيـة المقيتـة، التـي لـن نحصـد منهـا غيـر الهـلاك. وذلـك بعـد أن تكـون الإمبرياليـة قـد أفرغـت مخازنهـا مـن الأسـلحة، وعبّـأت أرصدتهـا بأمـوال المسـلمين. وإذا مـا أُخْرِجـت فهـي تتحسـر أحيانـاً على اسـتهداف «التحالـف» لراحلـة تقـل الأطفـال مـن منازلهـم إلـى مدارسـهم. كيـف يحـرص المسـلم على إفقـار جيرانـه، في الوقـت الـذي يجـب أن يعمـل فيـه على الإعـداد لخطـة إسـتراتيجية تنمويـة تصونهـم عـن الاسـتقطاب الأيديولوجـي، وتنـأى بهـم عـن الـولاءات الطائفيـة؟ ألـم تكـن 70 عامـاً كافيـة لتحقيـق هـذه الغايـة الإنسـانية السـامية والماديـة الراجحـة؟ مـا لنـا لا نتعلـم الـدروس ولا نأخـذ العبـر؟

بكـى إمـام الحـرم المدنـي وأبكـى في أخـر خطبـة لـه يـوم الجمعـة (فأهـل المدينـة مـا زال فيهـم رقـة لـم تُعهـد عنـد هـؤلاء البـدوان)، والتـي سـبقت نفـرة المسـلمين وتوجـه غالبيتهـم نحـو مكـة لأداء طـواف القـدوم، حرضهـم وأوصاهـم على التواصـي بالحـق، وهـو يعلـم حجـم المكايـد التـي يكيدهـا لهـم أبنـاء الملـة قبـل «أعـداء الديـن». كلنـا مغلوبـون على أمرنـا، فمـن يـا تـرى يصـون حـرم التمكيـن ويرعـى حرمـة المسـلمين؟ بـل مـن ذا الـذي يسـعى لإفهـام المسـلمين، أن مهمتهـم تتجـاوز حـدود عقيدتهـم إلـى الإنسـانية جمعـاء؟ فهـذا مـن صميـم رسـالتهم، وهـذا هـو سـبب تلبيتهـم لنـداء سـيدهم وشـفيعهم، الـذي كـرر في حجـة الـوداع قولـه: أيهـا النـاس .. أيهـا النـاس .. أيهـا النـاس، ولـم يكـن مطلبـه حينهـا فقـط إنصاتهـم، إنمـا أيضـاً كان مقصـده إسـماعهم أن رسـالتهم لا تقتصـر على جماعتهـم.

وهـذا البعـد الإنسـاني لـم يفهمـه المسـلمون على أنـه تعـارض بيـن الإنسـان والإلـه، أو أنــه صـراع أفضـى إلـى إحـداث قطيعــة بيـن العالـم الأرضـي والميتافيزيقـا، ممـا سـهل اسـتبدال الوجـود الإلهـي بالوجـود الإنسـاني، وأدى تلقائيـاً إلـى تأليـه الإنسـان. لأنهـم عندمـا يـرددون بصـوت واحـد: الله أكبـر كبيـرا والحمـد لله كثيـرا وسـبحان الله بكـرة وأصيـلا، فهـم إنمـا يُقِـرون إمكانيـة التجـاوز لهـذه الثنائيـة والتضاديـة، مـن خـلال مفهـوم الصيـرورة المعـوِّض لمفهـوم الوجـود، لكـن دون السـقوط في شـرك العبـادة لتلـك الأقانيـم، كمـا في فكـر محمـد إقبـال «الـذي يـردّ هـذا المفهـوم للوجـود، ويقـرّ نسـقاً آخـر يرتكـز على التصـوّر القرآنـي المقـرّ بالتطـوّر والصيـرورة، لا الجمـود والثبـات الـذي صنعـه الفقيـه المتأخـر» (عبـدالله إدالكـوس، موضـوع الدكتـوراه «النزعـة الإنسـانية في الفكـر الإسـلامي المعاصـر» 2014).

بـرز اتجـاه «أنسـنة الفكـر الإسـلامي وخطابـه بتضمينـه القيـم الإنسـانية» حسـب رأي الدكتـور عبدالحميـد الأنصاري (جريـدة الأيـام البحرينيـة، 1 فبرايـر 2014)، وتطـور مؤخـراً على أيـدي نخبـة فكريـة مسـتنيرة، منهـا: الشـيخ حسـن الصفـار في سلسـلة مؤلفاتـه ومقالاتـه، وبخاصـة كتابـه القيـم (الخطـاب الإسـلامي وحقـوق الإنسـان)، وللدكتـور عبدالجبـار الرفاعـي، المفكـر العراقـي، كتابـه المرجعـي الهـام (إنقـاذ النزعـة الإنسـانية في الديـن)، وللدكتـور سـعد الديـن هلالـي، أسـتاذ الفقـه بالأزهـر، كتـاب نفيـس (الإسـلام وإنسـانية الدولـة)، كمـا للباحـث المفكـر زكـي الميـلاد، كتيـب رائـع (الإسـلام والنزعـة الإنسـانية: كيـف نعطـي النزعـة الإنسـانية قـوة المعنـى؟)، ولهشـام جعيـط مقالتـه (النزعـة الإنسـانية والعقلانيـة في الإسـلام) التـي يعـرج فيهـا إلـى جهـود المفكـر محمـد أركـون في مجـال الأنسـنة، وإثرائـه لهـذا المجـال في كتابـه (معـارك مـن أجـل الأنسـنة في السـياقات الإسـلامية)، التـي تختلـف عـن نهـج المفكريـن الذيـن وجـدوا في القـرآن الكريـم منبعـاً ثريـاً وصافيـاً ومتجـددا لاكتشـاف نزعـة إنسـانية إسـلامية، مثـل شـريعتي، قـد لا تحوجنـا إلـى التعويـل كثيـراً على الفكـر الغربـي.

مـن أي المنطلقـات أو الفلسـفات قدمنـا، فـإن إبرازنـا لهـذه النزعـة في ديننـا، مهـم جـداً،

ومهم بالأخص في الأوقات التي يشتد فيها استخدام الدين في محاولة حسم صراعاتنا السياسية الأيديولوجية، كما يتم توظيفه للبت في خلافاتنا المذهبية والطائفية. الأمر الذي يعيق محاولتنا لبناء دولة المواطنة، ويحول دون اندماجنا حيوياً في المنظومة الدولية.

رغم المعاناة، فأنا لم أندم على انضمامي لهذه الحملة، ولو خُيّرت مرة أخرى لما عدلت عن صحبتي لأولئك النفر الكرماء، ليس من باب «أكون في غبراء الناس خير لي»، لكن من باب السياحة التي لم يكن مقصدها يوماً الراحة، إنما الاستزادة التي لا تتحقق إلا بالتعرف على أصحاب الملاحة، المكتنزين بقيم الأصالة، المشرئبة قلوبهم إلى التحلي بأسباب الواجهة. وقد كانت تلك مناسبة عظيمة، أتاحت لي فرصة التعرف على أناس لم يأتوا فقط من كل فج عميق، بل فروا إلى الله بقلوب منيبة وأشواق عديدة. تسمع مناجاتهم فتحمد الله أن جعلك في معيتهم، ترى معاناتهم طيلة أيام المناسك، فتوقن ببؤس قادتهم الذين اتخذوا القدر مشجباً لكل الإخفاقات وربطوا المعاناة، بل جعلوها شرطاً من شروط العمل الصالح.

التقيت فيمن التقيت الحاج)إبراهيم سكن(، الحاج (اللزم) الذي لازم والده الحاج (العاز موصلي أبّالي) ملازمة واعية (ليت الله يجعلها في ميزان حسناته)، وقد أتيا من خور برنقا (غرب دارفور)، الحاج إبراهيم الجعلي من بربر، الأخ حسين عثمان من أمدرمان، قدم من أمريكا لاصطحاب والدته (ليت كل خطوة خطاها تحسب له في الميزان)، عيشة حسين وبعلها، الشيخ عبدالرحمن عياد وإخوته، وأخيراً وليس آخراً هاشم النبيل. لمحت رجلاً لم أتبين ملامحه، لكنني قلت في نفسي «أيكون هاشماً هذا الأشعث الأغبر!؟» خلدت بعدها للنوم من شدة الإرهاق، ولم استيقظ إلا على صوت مسؤول الحملة يطلب منا النزول، لأن الباص قد تعطل. كيف لا يتعطل وقد حُمِّل فوق طاقته ونصف ذلك؟ نزل الجميع، فوقفت وجهاً لوجه مع هاشم كرار الصحفي المغوار. تسالمنا بحرارة وتقالدنا برفق، ابتدر حديثه قائلاً: إنشاء الله ببركة جيتك دي يا فلان، ربنا يرفع البلاء عن أهلنا بالسودان. لم أشأ أن أحبطه لكنني أسررت في نفسي قولاً

رغــم الإخـفاقــات المؤسســية المريعــة، إلا أن هنــاك شــعوباً كثيــرة، عكــف قادتهــا على تهيئــة المنــاخ المــادي لهــا ممّــا ســهل لهــا ادخــار طاقاتهــا للترقي الروحــي والفكــري، فيمــا وجــد الآخــرون أنفســهم محاصريــن بتحديــات جمّــة فأهــدروا الطاقــة تلــك في مقاومــة التدنــي النفســي، واحتســبوا لأن المعضـلات بالنسـبة لبعضهـم تـرد الـي القـدر

مفـاده: حسـنك الظـن بربـك مطلـوب، أمّـا حسـنك الظـن بصحبـك فبيـن منـدوب ومهيـوب. لـم يمـض وقـت حتـى افترقنـا وأنـا أقـول في نفسـي صـدق أهلنـا يـوم أن قالـوا «السـعيد مـا بمـوت شـقي.» ربنـا يقبـل حجتـه وينيـخ راحلتـه في وادي السـعادة، ويلهمنـا وإيـاه حسـن الإنابـة.

لا يتوقـع المـرء معاملـة طيبـة وكريمـة، وذلـك على كافـة المسـتويات، وإذا لقيهـا فإنـه يشـكر صاحبهـا كأنهـا تفضـل منـه وليـس واجـب. وهـذا في حـد ذاته إشـكال تربوي ونفسـي، ليـس هـذا هـو المجـال للاسـتفاضة فيـه. مثـلا، تنتفـض النسـوة مـن سـوء المعاملـة، فيُهرعن إلـى أزواجهـن وإخوانهـن في الجانـب الآخـر مـن المخيـم فيجدنهـم في منتهـى السـلبية والانهزاميـة، بـل التسـليم والتمثـل بأقـوال مثـل «الله غالـب» (وأهلنـا قديمـا قالـوا: المُغلِّـب بغلبـك بـي الله)، و «ربنـا يعظـم أجـرك» و«السـايرة واصلـة» وهلـم جـرا. يقينـي أن هـؤلاء النسـوة لـم يعترضـن على مشـيئة الله، ولـم يكـن يبحثـن عـن رفاهيـة، إنمـا فقـط كان مرادهـن «شـوية» انضبـاط إداري والتـزام مؤسسـي لا يُنَغِـص عليهـنّ روحانيتهـن، ولا يفسـد عليهـنّ حجتهـن.

إذا كان الأجـر على قـدر المشـقة، فيجـب التمييـز بيـن المشـقة التـي تصيـب الجسـد، مـن جـراء القيـام بعمـل لـم يعهـده، والرهـق الـذي يصيـب الـروح، مـن جـراء التعـرض لأمـر لا يتناسـب مـع الفطـرة، مثـل الكـذب الـذي آلفـه مسـؤول الحملـة، بـل اعتمـده كوسـيلة لتـدارك أي خلـل إداري. كان الهـروب هـو إحـدى الفَنِّيـات التـي اعتمدهـا «يونـس شـلبي» في تـلافي المشـكلات، فـكان يختفـي إذا أسـتفحل أمـر، كأن يأتـي حـاج ولا يجـد غرفـةً، أو تأتـي جماعـة في سـاعة متأخـرة مـن الليـل، ولا يسـتطيع توفيـر طعـام لهـا، أو يأتـي حـاج ولا يجـد مقعـده في البـص، إلـى آخـره مـن المشـكلات التـي يتـرك مهمـة حلهـا لزملائـه الآخريـن، سـهير البابلـي أو عـادل إمـام. وإذا مـا حُلَّـت أو حَلَّـت المشـكلة نفسـها، فإنـه سـرعان مـا يظهـر في المسـرح مبتسـماً، بعـد أن يكـون الحـاج قـد بـات على الكنبـة، أو حلـت الحاجـة مشـكلتها بالذهـاب لتنـاول الطعـام في مطعـم مجـاور، أو اسـتأجرت تاكسـي بسـعر خـرافي للذهـاب إلـى الحـرم، وقـد وعِـدت بالسـكنة بالقـرب منـه ، إلا أنهـا فوجئـت بأنهـا تسـكن في الحجـون

التـي تبلـغ تكلفـة الوصـول إليهـا مـن منـى 200 إلـى 300 ريـال بالتاكسـي. وذلـك، بعـد أن يكـون الحـاج قـد قطـع 7 كيلومتـرات للوصـول إلـى الموقـف. اسـتحالت المنافـع في هـذا الموسـم إلـى انتهـاكٍ صـارم لحرمـة الحجيـج، و ابتـزازٍ مـن قبـل «بعـض» مواطنـي الدولـة المضيفـة، الذيـن لا يحسـنون المطالبـة بحقهـم في الثـروة، فيلجـؤون لاسـتغلال إخوتهـم في العقيـدة. فهـل يلامـون على ذلـك؟

لـك أن تتخيـل أن هنـاك أناسـاً مسـنين أو مُعْوزيـن، صرفـوا آخـر مـا لديهـم مـن مدخـرات واقترضـوا أُخريـات، لسـداد 140 الـف قيمـة الحـج السـياحي، بعـد أن أيسـوا مـن قرعـة الحـج الحكومـي، والـذي أصبـح عبـارة عـن حيلـة أشـبه بـذر الرمـاد في العيـن. وهنـا يكمـن تقصيـر الدولـة المضيفـة، التـي كان بمقدورهـا أن توفـر وسـيلة نقـل (shuttle)، خاصـةً و أنهـا تعلـم أن نسـبةً معتبـرة مـن الحجـاج، لا يسـتطيعون المكـوث في معسـكر منـىً لأن الأوضـاع فيـه مزريـة، فهـم يفضلـون الرجـوع كل يـوم صبحـاً إلـى مكـة، والرجـوع للمبيـت في منـى للإيفـاء بمتطلبـات الشـرع.

مزدلفـة بالنسـبة لـي ولآخريـن كثـر، كانـت أكبـر امتحـان للتصديـق، فلـم يعـد هنـاك مـكان للمبيـت إلا لفئـة قليلـة ومصطفـاة، فهـل كانـت هـذه هـي الغايـة، أم أن الغايـة كانـت الاسـتواء- اسـتواءُ الـكلِّ على صعيـدٍ عرشُـه السـماءُ وهِمَّتُـه الإخـاء؟ إن تعطـل البـص- الـذي حُمِّـل قـدر حمولتـه ونصـف ذلـك- كاد يُفَـوت النسـاءَ ركـنُ أساسـي وتشـريع مطلبـه جمـع المغـرب والعشـاء في مزدلفـة، وعـدم التحـرك منهـا قبـل منتصـف الليـل. في غيـاب أي خدمـة إسـعافيه على الطريـق (triple A)، وضِـع الـكل بيـن خياريـن فقـط لا ثالـث لهمـا: إمّـا أن تترجـل أو تفوتـك الشـعيرة فيضيـع عليـك الحـج. ومـن كان معـه سـيدة مُسِـنة أو إنسـان معـاق، فخيـاره أوحـد، وهـو أن يكـون تحـت رحمـة رجـل المـرور، الـذي يبـدو وكأن موسـم الحـج قـد هبـط عليـه مـن السـماء تلـك الليلـة، فـلا يحسـن غيـر تحريـك المحابـس وإغـلاق الشـوارع، دون درايـة بمـا قـد يُحْدِثـه ذلـك في الطـرف الآخـر مـن المدينـة. علمـاً بـأن أبـراج المراقبـة المعتمـدة على ال (Traffic simulation programs) اسْـتُخْدِمَتْ لتوجيـه رجـل المـرور قبـل عقـود. فهـل سـعت الدولـة المضيفـة للاسـتعانة بهـذه التكنولوجيـا التـي هـي

في متنـاول اليـد؟

الأمـر لا يتعلـق فقـط باسـتيراد هـذه التكنولوجيـا، فهـي في متنـاول اليـد، إنمـا اسـتيعاب الـكادر القـادر على تفعيلهـا. وهـذا الـكادر هـو كادر غربـي بامتيـاز، فـإذا كانـت مكـة قـد حُرِّمـت على المشـركين لـدواعٍ عقدية، فقـد انتفـت هـذه الدواعـي، بـل تَوَجَّـبَ السـماح لهـم لمشـاهدة هـذا الجمـع، كـي يستشـعروا حيويـة هـذا الموكـب الإيمانـي العظيـم، «وبالمـرة» يسـاعدوا في تنظيـم النسـك فقـد فشـلنا في إدارتهـا، ووجـب علينـا الاعتـراف بذلـك. حتـى هـذه العبـارة الأخيـرة ربمـا لا تكـون كافيـة لاسـتفزازنا واسـتثارة حِسـنا، فقـد تبلـدت مشـاعرنا. الشـواهد كثيـرة، أعنـي شـواهد الفشـل والتبلـد، بيـد أنـه لا منـاص لـي مـن إيـراد حيثيـة ترفيهيـة تقـام في مدينـة شـتوتغارت (Stuttgart) وتسـتمر لفتـره تتـراوح بيـن 10 أيـام إلـى أسـبوعين، علهـا توقـظ بقيـةً مـن حميتنـا.

يجتمـع في هـذه الفعاليـة قرابـة 4 ملاييـن سـائح، يغرفـون مـن نهـر للبيـرة يتجـاوز طولـه كيلومتريـن، فـلا يتشاكسـون ولا يتذمـرون، بـل يسـمرون ويضحكـون. ذاك هـو مهرجـان البيـرة الـذي ظـل يقـام كل عـام منـذ عـام 1818م، فلـم يحـدث أن اشـتبك فيـه «السُـكارى!» حـد الاختنـاق، أو انهالـت عليهـم رافعـة، أو نشـب حريـق لمجـرد وقـوع سـيجارة في فـرش أحدهـم. هـل وصلـت الفكـرة؟ أعتقـد ذلـك. فالإخفـاق البنيـوي (بمعنـى غيـاب البنيـات ذات المواصفـات السـليمة)، يـؤدي إلـى إخفـاق مؤسسـي (انعـدام الـكادر المؤهـل المتحقـق بالعزيمـة والأمانـة والأهليـة التـي يتحقـق بهـا التراكـم المعـرفي)، الـذي يتسـبب بـدوره في نـوع الانحرافـات السـلوكية التـي وصفتهـا آنفـاً. إن الانحـراف ليـس مـن فطـرة الإنسـان، لكنـه قـد يلجـأ إليـه أول الأمـر كحيلـة للبقـاء، فيعتمـده لاحقـاً كإسـتراتيجية للثـراء. مثـلاً، اضطـر أحـد الحجـاج إلـى دفـع 800 ريـال للمطـوف «المطفـف؟» كـي يسـتخرج جـوازه، لأن لديـه التزامـات تسـتوجب سـفره قبـل الحملـة. قناعتـي أن هـذا المطـوف لـم ينـوِ إيـذاء الحـاج لكنـه رصـد ثغـرة في النظـام الإداري (loophole) فاسـتغلها لصالحـه. لـو أن الدولـة المضيفـة ضبطـت مواردهـا جيـداً، رشـدت بنـود صرفهـا، ورتبـت أولوياتهـا بطريقـة تعطـي هـذا أو ذاك الموظـف معاشـاً مناسـباً، وحافـزاً جيـداً يغنيـه عـن التذلـل، مـا لجـأ لمثـل هـذه الحيـل التـي لا

ترضي ضميره ولا تُعَبِّئ جيبه. هل دريتم من المتسبب إذن في هذا الهرج والمرج الذي تعيشه مجتمعاتنا؟ إنهم الولاة الذين صاروا بمثابة جُباة، بل غزاة. وقد وجب التخلص منهم بكافة السبل.

ظل دأب المسؤولين في الدولة المضيفة، منذ أن غشيتها رياح التغيير، لا تستحثهم إلا الكارثة ولا يستفزهم غير الإعلام وإذا، لا سمح الله، تكلم أحد بدافع أخلاقي أو ديني تستحثه مصلحة الوطن المنكوب، الأمة الأسيرة، أو حتى الأسرة المجيدة، فإنه عندهم من المقبوحين. ولذا فالدولة بكامل طواقمها تعكف على خدمة شلة ال VIP والتي لا تتجاوز نسبتها ال 5 في المائة، فكل سفير مثلاً يحق له أن يصطحب 100 شخص من «الوجهاء»(وإذا شئت الشركاء) من بلده الذي أنتدبه (وهؤلاء في أغلب الأحيان عبارة عن بلهاء ليس فيهم قراء أو علماء، يفضل أغلبهم أن يذهب إلي بيروت أو أديس ابابا لقضاء ليلة حمراء على التبتل لرب الأرض والسماء. هذا من واقع تجربتي ومعرفتي على الأقل بحال المتخمين في بلادي). تصرف الدولة المضيفة جل اهتمامها لهؤلاء وأمثالهم، بل ويتسابق إعلاؤها لإظهار حجم الكرم والعناية الذي تتلقاه الوفود الرسمية وتتسابق القنوات في إبراز حجم الاحتفاء بهم.

وهذا أمر محمود ونشامةُ عربية مطلوبة، بيد أن من جاء يسعى وهو يخشى فإن الإدارات جميعاً عنه تلهّى، عوضاً عن السهر على خدمته لأنه جاء بحر ماله، يطلب ولا يستجدي خدمة يستحقها. ليس هناك إشكال في التفاضل (التمايز بين درجات الحسن والجمال)، إنما الإشكال في التفضيل (الذي هو تمييز بين درجات القبح والسوء). بمعنى أنه لا غضاضة لدي أو غيري من المسلمين، إذا وفرت الدولة المضيفة للحجاج الإماراتيين طعاماً من «هداك» المطعم الفرنسي، الذي استورد منه شاه إيران الشوربة ساخنة في الطائرات احتفالاً بمئوية عرشه، أو إذا وفرت لغيرهم صالات للدلك، أو حملت آخرين على الأَسِّرة لرجم إبليس (غضب الله عليه!!)، لكن المرء يحس بحسرة لحال المسلمين الآخرين، إذا لم توفر لهم الدولة المضيفة الحد الأدنى من متطلبات العيش الكريم، واكتفت أو تركت الأمر برمته للمحسنين، كي يستوصوا بإخوانهم خيراً. وما أكثرهم في

تلك البقعة الطاهرة. بل ما أجملهم وما أنبلهم.

إن الجهد الذي بذلته الدولة المضيفة في توسعة الحرمين يغنيها عن التزلف لأي جهة، لكن واجب السدانة يلزمها الاسترشاد بهدي الخبراء والتزود بآرائهم، ووضع ما تراه مناسبا قيد التنفيذ. كم من المسلمين يجب أن يموتوا قبل أن تتحسن الخدمات؟ فموت الألوف المؤلفة قبل سنوات أدى إلى تحسن رمي الجمرات والذي لا يعد مثالياً بعد، فهناك بعض الإشكالات التي تتعلق بعدم وجود مصاعد تقل المعوقين وأصحاب العجلات؛ وقد رأيت شاباً خليجياً يعتزم دفع عجلة والده في السلم الكهربائي، إلا أن العسكري لحق به في آخر لحظة وجنبه الوقوع في كارثة ماحقة، كان يمكن أن تودي بحياة والده. لا توجد مراقبة لصيقة بالكاميرات، فقد وقعت عجوز تركية أمامي، فلم يأت الإسعاف لحملها طيلة ال 20 دقيقة التي مكثتها ولم أدر حينها ما حدث لها. بيد أنني علمت بعدها من بعض السيدات، اللائي جلسن أمامي في مركبة عامة مساء ذاك اليوم أنها توفيت.

أتوقع أن تحدث كارثة قريباً (بمعنى في الأعوام القادمة) في معسكر منى، الذي يفتقر تماماً إلى إجراءات السلامة، فلا يوجد فيه مجرد معدات لإطفاء الحريق، علماً بأن أسلاك توصيلات الكهرباء معظمها بائس ومعد بطريقة ليس فيها أي احترافية، ولا تحتمل بنيته ثلث ما أدرج فيه هذا العام. أما عرفة فحدِّث ولا حرج. بالنسبة للمطوِّفين في كلا المرفقين، فالأشخاص، أي الحجاج، هم عبار ة عن أعداد يجب تجاوز إرادتها إلى محفظتها. إن الواجب الديني يشترط علينا التعرض بالنقد لسلوك هؤلاء المطوِّفين (وإذا شئت المطففين)، بل من واجبنا التعريض بهذا السلوك الاصطفائي والازدرائي المقيت، والإقرار بأنه لا سبيل لإصلاح هذا الخلل السلوكي والمؤسسي، إلا بتوحيد مراتب الحج. فهذا التمايز قد حرم كثيراً من المستحقين، وأعطى آخرين متنزهين فرصاً فوق ما قد يحصل عليه حي بأكمله في أي من بلاد العالم الإسلامي. فيمكنك أن تقدم للحج الحكومي، وتتوقع أن لا توافيك القرعة لأعوام، أمَّا الحج السياحي فلا «يُجَّلِي» في أغلب الأحيان، إلا إذا كان اسمك محظوراً أو مغضوباً عليك من قبل الدولة المضيفة،

التـي أصبحـت سـريعة الغضـب، مخالفـة بذلـك بسـالة الفيصـل وإخوتـه، حكمتهـم ونبلهـم، تمهلهـم وقدرتهـم في الاحتفـاظ على شـعرة معاويـة في أحلـك الظـروف. يـا إلهـي!! مـا الـذي حـدث لهـذه الاسـرة المجيـدة ولـذاك الإرث التليـد؟

كان الناظـر سـعيد مادبـو، رحمـه الله رحمـة واسـعة، كثيـراً مـا يحكـي لنـا عـن الملـك فيصـل رحمـه الله فيقـول، ذاك رجـل اجتبـاه الله وحبـاه بقلـب منيـب، بفراسـة بدويـة عظيمـة. كان آل مادبـو على قيـادة غـرب السـودان وزعامـة البقَّـارة، عندمـا أرادت الدولـة السـودانية اسـتضافة الملـك فيصـل رحمـه الله، واختـارت دارفـور- نيـالا بالتحديـد- مكانـاً وسـطاً لـذاك الاسـتقبال بتاريـخ (5 مـارس 1966). اسـتحث الناظـر محمـود موسـي مادبـو إخوتـه مـن الملـوك والشـراتي والنظَّـار وقـال لهـم، لا يفوتنكـم هـذا الفضـل فهبـوا لا يلـوون على شـيء ولا يبخلـون بمـال. «متيـن كان المـال يملـى عيونهـم؟» اسـتقبلت دارفـور الفيصـل قائـداً للعروبة بمعناهـا الثقـافي والاجتماعـي، وليـس بمعناهـا العرقـي وأميـراً للإسـلام بمعنـاه العقـدي وليـس الطائفـي أو المذهبـي (فالشـيعة مـن أهـل القبلـة بإجمـاع أهـل السـنة، فمـن ذا يخرجهـم منهـا؟ ومـا الصـراع الـذي نـراه اليوم إلا صـراع بيـن المسـتبدين في كلا المعسـكرين)؛ اسـتعرضت دارفـور مجدهـا الـذي كان سـبباً في اسـتهداف الإمبرياليـة الإسـلامية لهـا، انتظـم خيـل قبائلهـا أربعـات مـن كثرتهـا، متسـقات بألوانهـا .. البيـدي والأشـقر والأخضـر واللَّحـو والأبيـض والأزرق ... ومنسـجمات مـع بسـالة أصحابهـا (مئـة ألـف على ظهـور الخيـل متراصيـن مـن شـدة الحَـزم لا مـن شـدة الحُـزم). كان الملـك فيصـل يطالـع ذاك المشـهد المهيـب الـذي قـل مـا يماثلـه مشـهد، إلا إذا اسـتثنينا أصحـاب محمـد وهـم يندفعـون نحـن وادي حنيـن، فقـال للناظـر سـعيد - الـذي كان شـاباً وقتهـا انتـدب لمرافقـة الملـك - وقـد انفعـل حتـى ارتجفـت أطرافـه مـن الفروسـية والهاشـمية، وقـد سـمعه مـن وليـه: «هـدول الرجـال هـدول الأبطـال، هـدول لـو عنـدي لحـررت بهـم بيـت المقـدس.» الرجـال مـا زالـوا موجوديـن عندنـا وعندكـم، بيـد أنهـم في انتظـار مـن يقودهـم بصـدق؟ أيـن هـي القـدس اليـوم مـن أولويـات قادتنـا؟

قـد تُصْعَـق إذا علمـت أن الفقـراء يُمولـون حـج الأغنيـاء، فالدولـة التـي يفـد منهـا الحجـاج

والتــي يفــد إليهــا الحجــاج، تســتغلان مــوارد الفقــراء (علمــاً أن مــن يدفــع 10 آلاف ريــال ســعودي لا يمكــن أن يُصَنّــف فقيــراً، لكنــه ضحيــة خلــل سياســي وإداري مريــع)، الذيــن هــم غالبيــة الحجــاج، لتوفــر خدمــات 5 نجــوم للمســئولين الحكومييــن، الذيــن يُعْطَــوْنَ منحــاً إكراميــة، علمــاً بأنهــم متخمــون وممتلئــة بطونهــم بمــال الســحت. وهنــاك تكمــن المفارقــة. هنــاك حجــاج تُنَظَّــف غرفهــم وتُبَخّــر وتُعقــم حماماتهــم، تتوفــر لهــم ســبل مواصــلات مريحــة، فيمــا تكتــظ غــرف «الحــج الســياحي» التــي تســع 30 شــخصاً ب 200 شــخص، تظــل غرفهــم متســخة وموبــوءة طيلــة أيــام المناســك، حماماتهــم مزدحمــة، قــذرة ومثيــرة للاشــمئزاز، وســبل مواصلاتهــم منعدمــة، ممّــا يلجــئ غالبيتهــم للترجــل قاطعيــن مــا يقــارب 12 كيلومتــراً فــي اليــوم. مــررت بهــذه الخيــام أيــام النســك طــرفي النهــار وزلفــاً مــن الليــل، فلــم ألحــظ غيــر نســبة قليلــة منشــغلة بالذكــر، التهجــد أو تــلاوة القــران. فالحــج الــذي مــن المفتــرض أن يكــون نفحــة مــن نفحــات الإخــاء الإنســاني، ومجــالاً مــن مجــالات التواصــل الفكــري، اســتحال إلــى ملهــاة بالنســبة للأغنيــاء، وإلــى معانــاة بالنســبة لمحــدودي الدخــل.

لقــد قــررت منــذ أول يومــا اصطدمــت فيهــا بمســؤول الحملــة، التعامــل مــع الحــج كحالــة بحثيــة (Case Study) أجــري فيــه حــوارات وأســجل فيــه ملاحظــات أنقلهــا مــن بعــد للقــراء. لا ســيما أننــي تذكــرت بأنــه - أي مســئول الحملــة- يمثــل الحلقــة الأضعــف في هــذا الإخفــاق المركــب(multiple layers of failure)، لأنــه ببســاطة ورغــم تحاملــي عليــه لا يتحمــل أكثــر مــن 15 في المئــة، تلــك المتعلقــة بالإخفــاق الســلوكي، فهنــاك 25 في المئــة تتحملهــا وزارة الأوقــاف، تلــك المتعلقــة بالإخفــاق الســلوكي والمؤسســي للدولــة الموفــدة، و60 في المئــة تتحملهــا الدولــة المضيفــة، تلــك المتعلقــة بالإخفــاق الســلوكي والمؤسســي والبنيــوي. ولــك حــق الاختــلاف معــي في المقــدار، ولكنهــا خبرتــي المتواضعــة في العمــل المؤسســي، والتــي هيــأت لــي إمكانيــة التقييــم وفــق معاييــر محــددة، ينبغــي إخضاعهــا لســبل البحــث الميدانــي المختلفــة، إن أزمعنــا التنقيــب عــن الحقائــق، ولــم نكتــف فقــط بالبهــرج واتخــاذ الحــج مناســبة إعلاميــة، تظهــر كــرم الدولــة المضيفــة وتفانيهــا في خدمــة الإســلام والمســلمين. وصفــت جريــدة المدينــة تجربــة الحــج لهــذا العــام بقولهــا «حــج ناجــح بامتيــاز» (بتاريــخ 13 ذو الحجــة 1439 الموافــق 24 اغســطس 2018). وفــق أيّ معاييــر وعلى أي أســس

تـم هـذا التقييـم؟ لـم أر مسـؤولاً قـد مـرر اسـتمارةً، ولـو على مجموعـة مختـارة عشـوائياً، أو عقـد اجتماعـاً أو أجـرى بحثـاً ميدانيـاً أو أجـرى لقـاءً معمّقـاً مـع قائـد حملـة. أهـو كلام ووهـم مـن جملـة الأوهـام، وعلى أميـر المؤمنيـن السـلام. حتـى متـى نسـتمر في هـذا المنـوال؟

إن غيـاب أي جهـة رقابيـة مـن طـرف أغلبيـة الـدول الإسـلامية، غالبـاً مـا يجعـل الحـاج (أو الحاجـة) تحـت رحمـة مسـئول (أو مسـئولة) الحملـة، الـذي لا يتـردد في اسـتئجار حافلـة تتمرجـح، و إذا شـئت تتأرجـح طيلـة الطريـق مـن المدينـة إلـى مكـة. يقـف البـص في (آبـار علـي) كـي يُحـرم الحجيـج، فيغلـق السـائق البـص ويذهـب. قـد لا تسـتحثه تلفونـات المسـئول، الـذي يشـعر بالحـرج لمعاينتـه أناسـاً مرضـى لا يقـوون على الوقـوف، وسـيدات لا يتحملـن الرطوبـة وشـدة الحـرارة في تلـك البقـاع القاحلـة. فـلا يأتـي إلا بعـد سـاعة مـن الموعـد المضـروب، كمـا لا يأبـه بتقديـم اعتـذار ، غالبـاً مـا تسـتدعيه المجاملـة وليـس بالضـرورة تأنيـب الضميـر. لـدى هـذا الشـعب خصـال كثيـرة حميـدة، ليـس مـن بينهـا اليـوم خصلـة واحـدة تعيـن على النهضـة، فالنهضـة تتطلـب أكثـر مـن همـة، إنهـا تتطلـب الانضبـاط. كان سـائقو الناقـلات على أيـام النقـل النهـري يلبسـون «أبـرول»، واليـوم يلبـس السـائق «عراقـي» مـن تحتـه فنلـة داخليـة، وقـد يكـون في مهمـة شـبه رسـمية، إن لـم نقـل مهمـة فيهـا نـوع مـن القدسـية. (للأمانـة، لقـد نسـيت أغراضـي في أحـد البصـات، فانتظرنـي أحدهـم يوميـن، ولـم يـرض تسـليمها لشـخص غيـري خشـية أن تضيـع، حتـى لقينـي فسـلمني عهدتـي بنفسـه. وهـذه في حـد ذاتهـا محمـدة ومزيـة لا توجـد اليـوم.)

وقـف البـص في مـكان مُقْفـر، فلـم أكـد أصـدق نفسـي مـن هـول البـؤس الـذي اتسـمت بـه الاسـتراحة، التـي رأيتهـا بـذات المنظـر قبـل ربـع قـرن مـن الزمـان تقريبـاً، وقـد لاحظـت الغيـاب التـام للخدمـات وكافـة نظـم الإصحـاح البيئـي، مـا جعـل معظـم السـيدات يمتنعـن عـن اسـتخدام المراحيـض، ويفضلـن انتظـار الوصـول إلـى مكـة المكرمـة، والتـي وصلهـا البـص بعـد 9 سـاعات (علمـاً بـأن هـذه المسـافة لا تتجـاوز ال4 سـاعات تحـت أي ظـرف مـن الظـروف). قـال لـي أحـد الإخـوان العراقييـن، أنهـم قبـل أعـوام وقفـوا في اسـتراحة لـم يسـتطيعوا الصـلاة فيهـا رغـم ضيـق الوقـت، لأن ميـاه الصـرف الصحـي طفحـت فـوق موكيـت المصلـى؟ كيـف لبلـد هـو الأغنـى في العالـم مـن حيـث المـوارد أن تظـل مرافقـه بهـذه الـرداءة؟ وأن لا

يعمل على انتشال بقاعه المترامية من هذا التخلف؟

أمضى السائق قرابة الساعة في محاولة لإثناء 3 ركاب سودانيين، قرروا بكل عشوائية وسبهللية، ركوب البص الذي لا يُسمح لسائقه إلا باصطحاب الحجاج الذين أدرجوا رسمياً في المنفستو، والذين دفعوا الرسوم المقررة، واتبعوا الإجراءات المعتمدة لدي وزارة الداخلية. مثل هذه التصرفات لها صلة بمستوى التحضر والانضباط لدي الحجاج من الدولة المعنية، بيد أن هنالك تداخلاً بين ما هو سلوكي (Behavioral) وما هو مؤسسي (Institutional)، لأن الرسوم الباهظة التي تشترطها بعض الدول الاسلامية علي حجابها، والمعاملة الضيزى التي يتلقاها أصحاب القطاع الخاص، من البنك المركزي، مقارنةً بالقطاع العام (وما يسمى بالحج الحكومي)، تجعل مسئولى الحملات يتفكرون في أي حيلة يزيدون بها هامش أرباحهم، وتغطية ما قد يكونوا تكبدوه من خسارة في خانات أخرى.

مثلا، إن الإدارة العامة للحج والعمرة (السودان)، والتي من المفترض أن تكون جهة رقابية أو سيادية مهمتها رسم السياسات، جعلت من نفسها جهة تنفيذية، بل قررت بيع الريال السعودي ب 7.8 ج للقطاع العام، وللوكالات ب 12,700 جنيه. تشتري الوكالات العملة الحرة من السوق السوداء، لتغطية الأعباء المالية والمصاريف التي تردها للمؤسسة الأهلية للطوافة (مؤسسة استحدثتها الدولة المضيفة ذات صبغة مبهمة لا هي بالأهلية ولا الرسمية)، تتراوح بين 1196 للحج العامي، 1674 للحج السياحي، بالإضافة لشيك الوكلاء. و 11,000 للحج المميز. تأخرت الفيزات هذا العام (2018م)، لأن بنك السودان تحصَّل الفلوس من الوكالات، ولم يسددها للدولة المضيفة، التي أوقفت الإجراء بعد أن شبعت من المقالب والغش والكذب، الذي احترفه المسؤولون السودانيون، والذين أرادوا للدولة المضيفة تحمل المعرة- معرة منع المسلمين من الوصول لأداء مناسك الحج، علماً بأن الفيزا الإلكترونية تصل تلقائياً وأوتوماتيكياً لمجرد نزول البيانات وتسديد الرسوم.

بكى إمام الحرم المدني وأبكى في أخر خطبة له يوم الجمعة (فأهل المدينة ما زال فيهم رقة لم تُعهد عند هؤلاء البدوان)، والتي سبقت نفرة المسلمين وتوجه غالبيتهم نحو مكة لأداء طواف القدوم، حرضهم وأوصاهم على التواصي بالحق، وهو يعلم حجم المكايد التي يكيدها لهم أبناء الملة قبل «أعداء الدين». كلنا مغلوبون على أمرنا، فمن يا ترى يصون حرم التمكين ويرعى حرمة المسلمين؟

كانت الدولة المضيفة إلى زمن قريب تتحرج عن اتخاذ قرارات صارمة مع جهات ذات صبغة رسمية، خاصة إذا كانت دينية، لكن المسئولين السودانيين في زمن الإنقاذ، لم يبق لهم ماء وجه يراق، فاستنفذوا كل حيل الاحتيال، مما اضطر سلطات الدولة المضيفة إلى إيقاف مسؤول الأوقاف السوداني، وإنزاله من الطائرة بعد أن أزمع مغادرة أراضيها متهرباً من دفع استحقاقات مالية. فاضحننا أينما ما حللتم، الله لا كسبكم. (كشفت مصادر مطلعة لـ «الجريدة» أن السلطات السعودية احتجزت جواز المدير العام للحج والعمرة، المطيع محمد أحمد لمنعه من مغادرة أراضيها، لعدم إيفائه بسداد الالتزامات المالية للحجاج السودانيين الخاصة بالسكن والترحيل، وكشفت ذات المصادر أن الأزمة الحالية سببها أن المتعهد السعودي، خصم مديونية العام الماضي التي تصل 4 ملايين ريالاً سعوديا، بجانب تأخر تحويلات بنك السودان المركزي، وأكدت المصادر أن المتبقي من الديون التي احتجز المطيع بسببها حتى الأسبوعيين الماضيين، بلغت 120 مليون ريال سعودي» (الجريدة، نوفمبر 2014، تقرير سعاد خضر).

لقد أصبح مال الحجيج مرتعاً لوزراء الأوقاف وكبار مسئولي الوزارة، علماً بأن تنظيم هذا المرفق لا يحتاج إلى شخص «متدين»، قدر حاجته إلى شخص ذي كفاءة إدارية ومهنية، كما يحتاج إلى مستوى من المعقولية. فالنظام المصري مثلاً لا تتجاوز نسبة دعمه للموظفين الحكوميين 25٪، فيما تتجاوز الدولة السودانية نسبة 75٪ ،ما يجعل التميز في الخدمات الذي يتلقاه أصحاب المنح، يأتي على حساب ما يدفعه أصحاب الحق الأصليين، الذين ينتظر بعضهم عقوداً لتحصيل المال الحلال كي يفدوا إلى الرحمن. أيهم أولي بالمنحة: المزارع الذي يعمل 35 عاماً مدّخراً ومقتطعاً جزءاً من ماله، أم الدستوري العاطل الذي لا يتجاوز جهده مهمة التملق لشاويش أفضل ما يجيده المراوغة والكذب؟

بدأت فكرة الحج السياحي عام 1422ه، بحُجّة تسهيل الإجراءات وتحسين مستوى الخدمات للكل، بيد أنها لم تفلح في تحقيق أيٍّ من هذه الأهداف الوسيطة، بل أضاعت النتيجة الرئيسة: تهيئة المناخ النفسي والمادي، الذي يهيئ للمسلمين ادخار

طاقاتهم للترقي الروحي والفكري، وعدم انشغالهم بأي أمر من الأمور الدنيوية، التي من شأنها أن تعكر عليهم صفوهم.

شَهِدتُ بسالة المسلمين، ووقفت على محبتهم لنبيهم، التمست التكافل كقيمة محورية في اجتماعهم، استشعرت رغبتهم لتلبية أمر ربهم وعزمهم على اقتفاء أثر سيدهم وأبيهم إبراهيم. لكنني خشيت إنْ طال بهم الأمد أن تستحيل عبادتهم التي تجعلهم في اتساق مع الكون، وانسجام مع مخلوقاته في التسبيح بحمده، خشيت أن تستحيل هذه العبادة إلي الوثنية، التي تزدهر متى ما ضاعت مدلولات العبادة، وجهل العابد رمزية النسك. ربما يأتي علينا زمان نلهج فيه بأدعية تغرس قيم التوحيد، لكننا لا نبرح ساحة الشرك. نردد قوله (صلى الله عليه وسلم): لا إله الا الله وحده، صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، فيما نمتثل للطواغيت ونقر منهجيتهم في الاستبداد والاستضعاف لعباد الله. يبكي بعضنا ويتقلب متأثرا لفراق الروضة الشريفة، ويتنحنح لوداع المصطفي، ويرجع فيتملق الحاكم ويظلم المحكوم.

لقد ارتضينا لأنفسنا علمانية وجودية، هي أشبه باللائكية (ولا حتى المفاصلة القيصرية: ما لله وما لقيصر)، والتي قادت بعضنا للانفصام، وأوقعت البعض الأخر في الزندقة والإلحاد. السؤال الفلسفي الذي ظللت أكرره على نفسي طيلة أيام الحج: هل يحتاج الفرد المسلم إلى الوعي بالشيء كي يجني ثماره، أم أن الجانب الطقوسي الجماعي قد يكفل انسياب القيم إلى ضمير ذاك الفرد؟ بمعنى أكثر وضوحاً، هل تغييب العقل هو أحد مطلوبات الإيمان، أم أن الاعتقاد يفتح منافذ للذهن غير المتعارف عليها؟ لا أدري، ومن قال لا أدري فقد أفتى.

هل يحتاج الله إلى معاناتنا، أم أنه أدخر المشقة وسيلة، لربما حدثت بها يقظتنا؟ هذه اليقظة التي طالما خافها خلفاء المسلمين وأمراؤهم عبر التاريخ، بل عمدوا إلى إخمادها، لأنها إن اشرأبت يوماً بعنقها فسوف تعيد الأمر إلى نصابه، وسترد التعاليم إلى أصولها متجاوزة الفقه، الذي أعجزهم برسمه عن مواكبة العصر، فانفصلوا عن

ذواتهم أو قرروا ببساطة المواكبة بأجسادهم.

لم يعد هناك مجال للمراء، فأموال الحج قد امتصها «الوسطاء»، فهناك مسؤولو الحملات، وزارات الأوقاف بالدول الإسلامية، و«المؤسسة الأهلية للطوافة» التي تصر الدولة المضيفة على أنها مؤسسة أهلية. حتى ولو، لماذا لا تخضع للمحاسبة؟ لماذا لا يكون هناك موقع إلكتروني تُعرض فيه الأرقام بمنتهى الشفافية فهذا حريٌّ أن يدفع عن جهات كثيرة تهمة التلاعب بأموال الحجيج؟ عندما تسأل مسؤول الحملة عن عدم التناسق بين رسوم الحج ومستوى الخدمات، يقول لك المُطَوِّف زاد السعر هذا العام؛ عندما تسأل المطوف، يقول لك الأمير الفلاني أُقْتُطِع مساحة فقسمها بطريقة لا يمكن تصريفها للحجاج بسعر «معقول» إلا إذا حشر فيها أكبر عدد منهم. وأنت في خضم هذه الفوضى «لايص» (ضائع)، لا حيلة لك للوصول للحقيقة إلا تخميناً أو تقريباً. وقد تكتفي بالتسليم السلبي (الانهزامية) أو الاحتساب القدري (وليس الشرعي) وأنت تضمر في نفسك الذهاب مستقبلاً مع حملة مغايرة (فالحبوبات قلن «الحجات تلاتة: قضى فرضو ورضى ربو والأخيرة نسيتها ومن ذكرها فليراسلني يمكن أتحمس شوية)، أو تنسى الموضوع مجرد رجوعك إلى بلادك سالماً، وتقول في نفسك «للبيت رب يحميه»! ولذات الأسباب ظلت المأساة تتكرر كل عام وستظل، ما لم يقرر المسلمون اتخاذ موقف جماعي يبدأ بترجمة هذه المقالة، والبحث عن مقالات لربما كتبها مسلمون آخرون، مناقشتها، بلورة موقف بشأن القضايا كافة وتحديد نقاط بعينها، رفع مذكرة إلي الدولة المضيفة ومخاطبتها بشأن الإخفاقات كما النجاحات، والاتفاق معها على آلية وقناة يمكن أن تمرر من خلالها شكاوى الحجيج من كل أنحاء المعمورة.

إن غياب البنية التحتية في جميع المناسك، ما عدا رمي الجمرات الذي تحسن بصورة مذهلة من آخر مره حججت فيها في عام 1995، يخلق إشكالية مؤسسية، والأخيرة تخلق إشكالية سلوكية كما سنبين لاحقاً. سأقدم مقترحاتي بشأن منى وعرفة، لكنني أكرر فأقول إنَّ المشكلة مشكلة إدارية، لن تنتهي بتشييد مبان، إنما بغرس معانٍ وتوفير سبل إرشاد معنوي، تجعل الحجاج على صعيد واحد في مصاف التوحيد. تتكرر

عبارة «حج يا حاج» لدرء فتنة وأحياناً للتعبير عن عجز المسلم عن إيجاد قنوات يمرر شكواه من خلالها بشأن خطأ عام، فيلجأ إلى التذمر الذي قد لا تكون دوافعه شخصية، إنما جماعية، أو حتى دعوية.

مثلاً، لقد انقطعت المياه بعد ساعتين أو ثلاث من وصول الحجيج إلى منى، هذا المعسكر الروحي الضخم، الذي لم يُزوَّد بعد بمرحاض حديث أو مياه صرف صحي، إنما فيه مياه تجرف الفضلات فقط ولا تعمل على معالجتها. وما زالت مراحيض هذا المرفق تعمل بنظام «الأدبخانه أو بيت الكنيف» (Pit Latrine) دون أو تزود بمنافذ هوائية (Exhaust Pipe)،لا تتوفر فيه مبولة لمرضى السكر والعجزة الذين لا يتحملون الوقوف لساعات في الصفوف، لا تتوفر فيه مراحيض إفرنجيه للعجزة والمعوقين وأصحاب الحاجات، إلى آخره من المآخذ التي جعلتني أتفكر في شأن الصدمة التي ستصيب «الخواجة» يوم أن يفكر في اعتناق الدين الذي يحث على النظافة، ولا يجني أتباعه غير القذارة.

أحسست حال انقطاع المياه بأن حرجاً بيئياً سيحدث، وكارثة صحيه قد تحل بهذا الجمع، فذهبت إلى أقرب مصحة، طلبت التحدث إلى الطبيب المسؤول، وألححت عليه في الاتصال باللجنة العليا للطوارئ، رد عليَّ ساخراً «لمن تعرف عن هذه اللجنة أبقى كلمني!» عندما لا تكون هناك خطة لتدارك مثل هذه الأمور الطارئة (Contingency Plan)، واستعداد مؤسسي للتنبؤ بالمخاطر (Speculative Measures)، فأعلم أن هنالك إشكالية وانعداماً تاماً لنظم الحوكمة. وقع زلزالٌ في هايتي عام 2010م بمقدار 7,5 ركتار حصد عدد 250,000 من الأرواح، وآخر وقع في شيلي في نفس العام بمقدار 8,8 ركتار مات فيه 1000 شخص. أتدري ما الفرق؟ الفرق الأساسي هو بين نظم الحوكمة في البلدين (Lina Abu Swarieh of the ISDR). إن دورة اتخاذ القرار محكمة وسديدة في شيلي، بينما هي متراخية وتتخللها شروخ في هايتي. سيما أنهم في الأخيرة لم يعملوا على مراجعة مواصفات البناء، لم تتأهب فرق الإنذار، لم ترصد ميزانيات ولم تعتمد سياسات لمواجهة الخطر، بل انتظروا حتى ساعة وقوعه ولات حين مناص.

إن التدقيق في شأن الحوادث، هو آخر ما يرجوه المسؤولون في منطقتنا عموماً، لأنهم لا يريدون أن يشيروا إلى مُعَين أو أن يُحمِّلوا أحد زملائهم (أو أقسامهم) المسئولية. ولذا فأن الرقابة والمتابعة تعهدان إلى أقل الناس كفاءة، بل يتم تجاوز هذه المحطة المهمة إلى كتابة تقارير مبهمة، مغلوطة، أو حتى ملفقة. تتوالى الكوارث على الحجاج عاماً بعد عام، فلا نسمع عن تقرير نُشِر، وأنّ جهة مسؤولة أوقفت أو غُرِّمت أو حُكِمت بالسجن، ابتداء من حريق منى، مروراً بتدافع الحجاج في رمي الجمرات، انتهاء بالرافعة. طالبتْ جميع الجاليات بحق ضحاياها في حادثة الرافعة ما عدا السودانيين، فقد احتسبوا موتاهم. ومع ذلك فهم يتلقون أسوأ المعاملة ويعهد إليهم بأبخس الأدوار، وما ذلك إلا لأن ممثليهم لا يحترمونهم ولا يحترمون أنفسهم.

إن بعض الجاليات، الخليجية خاصة، لها مراحيض يتولى نظافتها عمال تحفزهم حملاتهم أو توفرهم الدولة المضيفة، ما عدا الآخرين، فقد خُصصت لهم مراحيض هي للاستعمال العام والخاص. حتى هؤلاء يضطرون لعمل «ترتيبات خاصة» مع مسؤولي الحج في الدولة المضيفة قبل فترة، وإذا لم يفعلوا فتأكد أن حالهم سيكون مثل حال غيرهم. ـ وإذا لم يفعلوا لن يعانوا الإهمال فقط، بل أيضاً الاحتقار لكل من هو دون فئة ال VIP، ولم تنطبق عليه خصائص الشلة إياها. ولك أن تتخيل منظر طوابير النساء والرجال وهي تمتد من داخل معسكرهم إلى الشارع العام. أود أن أقول إنّ هناك مشكلة تتعلق بمعسكر منى، لم تعمل جهة على النظر في أمرها وتحديث مرافقها، وهناك مشكلة تتعلق بشأن الجاليات المهملة داخل منى. الغريب أن الحاج الهندي يتلقى معاملة أفضل رغم أنه يدفع ثلث ما يدفعه الحاج الليبي، الشادي أو السوداني من قيمة مالية. وما ذلك إلا أن حكومته «العلمانية» تركز على تجويد الحج الحكومي، وتفكر في راحة مواطنيها، أكثر مما تفكر في سرقة مدخراتهم من العملة الصعبة.

لقد أذهلني الغياب التام لأي مسؤول إداري أو فني، وانعدام أي لجان رقابية، في منشط (روحاني) يتجاوز عدد رواده خمسة ملايين حاج، وذلك طيلة أيام النسك. يوجد هناك بعض الكشّافة، والذين كانوا في قمة الأريحية والمهنية والإخلاص، وبعض المجندين

الذيـن عُهِـد اليهـم بتحويـل المحابـس مـن موقـع إلـى آخـر، ولـم تتـرك لهـم حريـة اتخـاذ القـرار في أكثـر الأمـور بداهــة. مثــلاً، بعـد أن رمينـا الجمـرة الأولـى، اضطررنـا وأنـا رجـل سـتيني- عانـى آلام الغضـروف وأُجريـت لـه عمليتـان - أثنـاء توجهنـا للرمـي للترجـل قاطعيـن مسـافة 19 كيلـو متـراً، فلـم نسـتطيع الوصـول إلـى معسـكرنا الاَّ بعـد ثـلاث سـاعات، لـم نخمـد بعدهـا للراحـة، لأن بعـض الحجـاج «الطيبيـن» اسـتضافوا أقاربهـم وأصحابهـم، فاسـتحيينا مـن إيقاظهـم.

هنـاك تداخـل مريـع بيـن السـبهلليه كإشـكال سـلوكي لـدى الحجـاج، والعشـوائية والفجائيـة كإشـكال مؤسسـي لمنظمـي الحملـة، والغيـاب التـام للبنيـة التحتيـة المناسـبة، والتـي مـن المفتـرض أن توفرهـا الدولـة المضيفـة، التـي تجنـي 50 مليـون ريـال مـن منشـأ لا تتجـاوز أيامـه 5 أيـام (Reuters; September 4, 2017). وقـد تتراكـم كل هـذه الإشـكالات (سـلوكية، مؤسسـية وبنيويـة)، فتعيـق إمكانيـة التفاعـل الحيـوي بيـن الجهـات الثـلاث: الحـاج، مسـؤول الحملـة والدولـة المضيفـة. إن الإشـكال البنيـوي ينتـج عنـه إشـكال مؤسسـي، والأخيـر يتسـبب في خلـق إشـكالات سـلوكية.

لابـد أن تُوَفَّـر بنيـات جديـدة لمعسـكري منـى وعرفـة، بحيـث تسـتوعب الأعـداد المهولـة والمتزايـدة للمسـلمين، تسـهل إمكانيـة تفاعلهـم الروحـي والفكـري- حتـى لا يسـتحيل «القيـام بعرفـة» إلـى «النيـام بعرفـة»- ولا تصبـح سـاحة منـى خانـة للضنـك ومدعـاة للسـأم، ولا يكـون الانتقـال منهـا محمـدة يدّخرهـا الحـاج، وصدقـة يبذلهـا للنجـاة مـن كارثـة كادت تكـون ماحقـة. لقـد تنقلـت في منـى، وأيقنـت بعـد أن تفحصـت خاناتهـا، نظـرت في سـعة التوصيـلات الكهربائيـة وطبيعـة التكييـف، مـن أن كارثـة وحريقـاً آخـر سـيحدث العـام القـادم، أو الأعـوام القادمـة، وذلـك لمجـرد معاينتـي الأوليـة واسـتخدامي لحـس هندسـي «خامـل» ومهنـة لـم أزاولهـا منـذ عقـود ولا تسـتهويني إلا إذا كان الأمـر مسـتفحلاً.

مـا كان المـرء ليلـوم بعـض الحجـاج، الذيـن ظلـوا طيلـة فتـرة مكوثهـم يتلهّـون بالموبايـلات، يتنقلـون بيـن الثكنـات، ويتبـارون في الأحاجـي واختـراع النـكات. لأن المنـاخ الحسـي والمادي

صراحـةً يثيـر الضجـر والملـل، ولا يعيـن على التفكـر واسـتنظار العبـر. هنالـك جاليـات تعانـي ظروفـاً مماثلـة، لكنهـا تقـاوم السـأم بالتهليـل و التكبيـر وتطلـب المفـازة في التلبيـة «لبيـك اللهـم لبيـك، لبيـك لا شـريك لـك لبيـك، إن الحمـد والنعمـة لـك والملـك لا شـريك لـك لبيـك.» انتظـم المسـلمون في أداء شـعيرة التلبيــة وتـرداد هـذا النشـيد الكونـي العظيـم، الــذي تـردده جميـع الخلائـق ويشـهده الأوليـاء والمقربـون، يمثلهـم في عالـم الشـهادة الخضـر وذو الكفـل اللـذان يلتقيـان عنـد المشـعر الحـرام كل عـام، حسـب آراء بعـض المتصوفـة (وقـد أورد المريـدون هـذا الـكلام عـن الشـيخ عبدالرحيـم البرعـي رضـي الله عنـه) رغـم الصعـاب، ظلـوا يتواصـون بالحـق، وينشـدون الإبقـاء على هـذه الشـعائر، عـلَّ الأجيـال القادمـة تعمـل على اسـتعادة القيـم، وتنشـط في اسـترجاع المـوروث، بعـد أن اندثـر وكادت تُغَبِّـرُه أتربـة الحيـف وتخفـي آثـاره غمائـم الضـلال.

لا أعتقـد أننـا نحتـاج إلـى لجنـة دوليـة لإدارة النسـك، فهـذا قـد يعتبـر تدخـلاً في الحـق السـيادي للدولـة المضيفـة (علمـاً أن 80٪ مـن ميزانيـة الحـج كانـت تأتـي مـن الخـارج وذلـك قبـل اكتشـاف البتـرول، بالتحديـد مـن تركيـا ومصـر والسـودان)، لكننـي أجـزم بأنـه بـات مـن الضـروري، الاسـتعانة بكفـاءات ذات خبـرة عالميـة فتنظيـم فاعليـة ذات أنشـطة متعـددة مـن أصعـب المهـام التـي تتطلـب وجـود طاقـم مقتـدر، لديـه تفويـض واضـح مـن الجهـات السـيادية العليـا، بإنجـاز العمـل بـأعلى مسـتويات الجـودة، وأفضـل مراتـب السـلامة. هـذه اللجـان تختلـف في طبيعتهـا عـن لجـان الضيافـة، التـي تسـهر على راحـة وسـلامة كبـار الـزوار . لأن الأخيريـن محـدودو العـدد، منسـجمو الهـوى والهويـة، وغالبـاً مـا يكـون لديهـم مسـتوىً عـالٍ مـن التعليـم. أمـا الآخـرون فقـد تتفـاوت مسـتويات تحضرهـم، تختلـف اهتماماتهـم، وغالبـاً مـا لا تكـون أهواؤهـم منسـجمة. رغمـاً عـن ذلـك، فإنـه يجـب أن لا يكـون ذلـك مدعـاة لإهمالهـم، وألا تتخـذ كثرتهـم مبـرراً للإخفاقـات الإداريـة، التـي ظلـت تلاحـق موسـم الحـج لأعـوام.

فهنالـك دول لا تـكاد تصـدِّق أنهـا حظيـت بـدورة واحـدة، لتنظيـم كأس العالـم، مثـل جنـوب أفريقيـا، التـي لـم تدخـر جهـداً لإنجاحـه، بـل أبدعـت في إخراجـه بمسـتوىً عـالٍ أبهـر أعظـم

الـدول الصناعيـة. مـا ظنـك بموسـم ظـل يتكـرر وسـيظل، حتـى يـرث الله الأرض ومـا عليهـا؟ وفي دولـة تمتلـك مـن القـدرات الماليـة مـا لا حـد لـه، ومـن الموجهـات مـن لا يغنـي عـن الدربـة في تسـيير مثـل هـذه الأنشـطة؟ بـل الأعظـم مـن ذلـك هـو الرصيـد البشـري والمـورد الإنسـي المتمثـل في سـلوك المسـلمين، وخشـيتهم مـن الله ورغبتهـم في رضوانـه، لا سـيما في مثـل هـذه البقـاع والأراضي الطاهـرة، التـي خصهـا الله عـز وجـل بالبركـة. لقـد بنـت الصيـن مدينـة أولمبيـة في عاميـن (ألومبيـاد 2008)، كمـا «فرضـت بكيـن بتنظيمهـا دورة الألعـاب الأولمبيـة على مسـتوى عـال، صـورة الصيـن الحديثـة والفاعلـة» (البيـان الإماراتيـة، 26/أغسـطس/2008). فهـل نعجـز عـن توفيـر بنيـة تحتيـة على مـدى عقـود تليـق بقدسـية الحـج وتيسـر أمـر النسـك؟

لا يمكـن أن نفشـل في تنظيـم منسـك تغشـاه الرهبـة وتتنـزل عليـه السـكينة، فيمـا تنجـح شـركات متواضعـة في إدارة مهرجانـات للبيـرة في ألمانيـا يجتمـع فيـه قرابـة 4 ملاييـن كل عـام، فـلا يختنـق أحدهـم مـن انعـدام الأوكسـجين، ولا يضـل «سـكرانُ» واحـد طريقـه إلـى منزلتـه، فـكل الطرقـات مضـاءة ومراقبـة بالكاميـرات، ولا تنتظـر الجهـات المعنيـة إخطـارا، بـل تتحـرك متـى مـا رأت أحدهـم يترنـح. مـا بالـك بالحجيـج الذيـن يضـل بعضهـم الطريـق إلـى منزلتـه فـلا يجـد مـن يرشـده؟ الأدهـى، أن منظمـي الحملـة قـد لا يفتقدوهـم ولا يـدرون عـن غيابهـم إلا بعـد رجوعهـم.

أبلغنـي أحـد زملائـي المهندسـين (جامـس كوشـني)، أمريكـي مـن أصـل هنـدي، المسـؤول الأول عـن نظـم السـلامة في (ديزنـي لاند/فلوريـدا)، بأنهـم طبقوا نظـام البطاقـة الإلكترونية (سـوار بلاسـتيكي يربـط في اليـد ويفعـل بالبصمـة) بكفـاءة فائقـة. حتـى أن المـرء يسـعه الدخـول والخـروج مـن المعسـكر بواسـطته، طلـب الأكل، ركـوب البـص، التعـرف على مواقـع أفـراد الأسـرة الآخريـن، واسـتخدام الألعـاب والاسـتفادة مـن كل المنافـع، مثـل ركـوب القطـار مسـتخدماً السـوار . هـذا النـوع مـن الكفـاءة الإداريـة يتطلـب توفـر بنيـة تحتيـة، كادر مهنـي مؤهـل، والأهـم مـن هـذا وذاك، اهتمـام الجهـة المنظمـة بتوفيـر الخدمـات لكل المسـتفيدين، دونمـا تمييـز إلاَّ مـا يقتضيـه ظـرف صحـي أو إعاقـة بدنيـة. بالرغـم مـن ضخامـة المبنـى

وفاعليـة التشـغيل لرمـي الجمـرات، إلاَّ أن هنـاك تقصيـر أساسـي، يتمثـل في عـدم وجـود مصاعـد تسـتخدم لتنقـل أصحـاب العجـلات (Wheel Chair). كمـا لـم تُخصـص لهـم مسـارات، تنـأى بهـم عـن الزحـام وتجنبهـم الاصطـدام بالحجيـج.

لعلنـا نتخـذ العبـرة ممّـا ذكـرت آنفـاً، بشـأن الشـاب الخليجـي الـذي أراد دفـع عجلـة والـده المقعـد في السـلم الكهربائـي، لـولا أن الجنـدي لحقـه وأعانـه على إنـزال والـده بسـلامة. لا يسـمح في الولايـات المتحـدة لأصحـاب العجـلات باسـتخدام السـلم الكهربائـي، فيمـا تتوفـر لهـم المصاعـد مـن كل جانـب. يعانـي هـؤلاء المعاقـون أو محـدودو الحركـة، حتـى في التنقـل داخـل الحرميـن، وبيـن المنـازل في مختلـف أطـوار النسـك لأنـه لا توجـد مبـانٍ خاصـة في منـي وعرفـة، تراعـي المواصفـات الحديثـة للمبانـي المدنيـة، وهـذه أمـور وملاحظـات يمكـن تداركهـا متـى مـا قررت الدولـة المضيفـة تصميـم مبـانٍ تـؤدي وظيفـة الإسـكان الآمِـن والمريـح، وتحافـظ على هيئـة المعسـكر الروحـي. هنالـك خيـارات عديـدة، منهـا اسـتيراد حاويـات مجهـزة، بيـوت متحركـة أو بنـاء هيـاكل حديديـة تصل سـعتها إلـى أربعـة طوابـق، تجعـل مـن السـهل اسـتيعاب الـكل بكرامـة، وافسـاح المجـال لتجهيـز صـالات للعبـادة والذكـر، سـيما تسـهيل التفاكـر والتواصـل بيـن المسـلمين.

هنالـك جماعـات دينيـة كثيـرة، برعـت عبـر التاريـخ في تنظيـم أنشـطة روحيـة هادفـة، مـن أخلصهـا وأوفاهـا «جماعـة التبليـغ»، التـي ابتدعـت «سـنة الخـروج» (أو أحيتهـا)، واجتهـدت في تنظيمهـا بأسـلوب حفـظ للمنشـط روحـه. يخرجـون فتيـةً، كهـولاً وشـباباً بنيـة صادقـة، يتقاسـمون الخدمـة فيمـا بينهـم فـلا ينظـرون إلـى خلفيـة مـن تُعهـد إليـه وظيفـة، إنمـا تصيـر العُهـدة إلـى مـن ينشـد الإخـلاص فيهـا: قـد تـوكل مهمـة «نظافـة الحمامـات» إلـى جـراح عظيـم لا يقـل دخلـه المالـي عـن 1٫5 مليـون دولار في السـنة، وقـد تسـند مهمـة نظافـة المسـجد إلـى سـائق تاكسـي، والطبـخ إلـى أسـتاذ جامعـي، والموعظـة إلـى فَـرّاش، إلـى آخـره مـن الوظائـف التـي يتوخـى التـدرج بمؤديهـا سـلم التربيـة والترقـي بـه في مـدارج السـالكين.

لابــد أن تُوَفَّــر بنيــات جديــدة لمعســكري منــى وعرفــة، بحيــث تســتوعب الأعــداد المهولــة والمتزايــدة للمســلمين، تســهل إمكانيــة تفاعلهــم الروحــي والفكــري- حتــى لا يســتحيل «القيــام بعرفــة» إلــى «النيــام بعرفــة»- ولا تصبــح ســاحة منــى خانــة للضنــك ومدعــاة للســأم، ولا يكــون الانتقــال منهــا محمــدة يدّخرهــا الحــاج، وصدقــة يبذلهــا للنجــاة مــن كارثــة كادت تكــون ماحقــة.

لا أدعو إلى استنساخ هذه التجربة، رغم إعجابي بها، لكنني أقول إنها إحدى التجارب التي تبين إمكانية التوفيق بين تلبية الحاجات الفيزيولوجية، والإيفاء بموجهات الذات الربانية. لا يكتفي «أمراء جماعة التبليغ» بإقامة الندوات وبذل المواعظ، إنما يركزون على انعكاس كل ذلك في سلوكهم. فلا تمر بجماعة منهم في ساعة من ليل أو نهار، إلاَّ وفيهم رجل ذاكر أو امرأة قائمة، كما لا يمكن أن يمكثوا في أي مركز إسلامي بعرض الولايات المتحدة وطولها، ولو شهوراً، فيُخلِّفوا وراءهم أوساخاً أو فوضى. ولذا فالكل ظل مرحباً دوماً بهم ومستبشراً بقدومهم.

لا يمكن أن نترك مسؤولية تأهيل الحجيج، على عاتق الدولة المضيفة، إنما يجب أن تعقد للحجيج ندوات ذات مغزىً تربوي، ولا تقتصر فقط على الجوانب الإجرائية. تشمل مهمة الدولة المضيفة بل ويجب أن تتضمن تصميم نظم ووضع أطر وسياسات عادلة (ليس فقط صارمة)، يكون من الصعب تخطيها. قد لا يحس الحاج حاجة لتجاوزها، لأن الامتثال لها أيسر ويجلب مصلحة أفضل. وهذه هي صفة السياسات الرصينة. لذلك، فقد يكون تحقق المصلحة في الامتثال بها وليس تجاوزها. وهذه هي سمة السياسات المدروسة، أنها تدفع الشخص دفعاً وتستحثه للامتثال بها. أما إذا كانت الرسوم التي تفرضها الدولة المضيفة (أو وزارة الأوقاف ببعض الدول الإسلامية) اعتباطية والسياسات غير منطقية، فإن الحاج سيكون نهباً للمطوفين وسيسعى الكل للتكسب من وراء الحجيج، واستغلال حاجتهم أو لهفتهم للرجوع إلى بلادهم في أقرب فرصة، مستنفدين كل الحيل ومستغلين كل الثغرات الإدارية التي قد لا تكون مقصودة. هذا من الناحية القانونية، أما من الناحية التنظيمية الميدانية، فإن توفير مواصلات مجانية في شكل باصات سريعة (Shuttles)، للحجاج تنقلهم بعد فراغهم من رمي الجمرات إلي مكة إن أرادوا أداء الطواف، او تُرْجعهم إلى منىً إن أرادوا الرجوع إلى ثكناتهم، فحتماً سَيُفعِّل وييسر مهمة توجيه الحجاج، الذين قد يسعي بعضهم للرجوع من ذات الطريق الذي أتوا منها، ما قد يسبب اصطداماً بالأفواج القادمة من الاتجاه المغاير/المعاكس.

يقطع الحاج مسافات من الحرم، ماراً بنفق الملك فهد، فلا يجد عربة تُقِله أو تعيده

إلـى معسـكره، بـل يمضـي مترجـلاً فيتـأذى مـن رائحـة ميـاه الصـرف، التـي تـأذى منهـا الكثيـرون، خاصـة القابعـون على قارعـة الطريـق، فلـم يجـدوا مفـراً مـن التعايـش معهـا، لأنهـا تفـوح مـن كل ناحيـة مـن نواحـي المناسـك. المؤسـف أن هنالـك أعـداداً هائلـة مـن المسـلمين، تقطـن الشـوارع ولا تجـد منافعـاً تسـتخدمها، مما يضطرهـا إلـى اسـتئذان بعـض موظفـي الحمـلات المعتمـدة. وإذ يعلـم أكثرنـا الفـارق الحضـاري بيننـا وبيـن البلـدان الغربيـة، التـي تعمـل علـي تهيئـة المرافـق العامـة، سـيما أماكـن التنـزه، فإنـا نوقـن بـأن ذلـك لا يمنـع الدولـة المضيفـة مـن تهيئـة محطـات تخصـص لأصحـاب البيـوت المتحركـة، والذيـن لا يلزمهـم غيـر التوقـف في الأماكـن المتخصصـة لتمريـر ميـاه الصـرف في محطـات خصصـت لـذاك الغـرض. هـذا الأمـر يمكـن أن يتـم إدراجـه في قائمـة الأولويـات للحجيـج. خاصـة أن مزدلفـة لـم يعـد فيهـا مـكان للبيـت، أو حتـى فسـحة لأداء الصلـوات.

يجـازف الحجـاج بأنفسـهم عندمـا يُصَلُّـون على قارعـة الطريـق، ينامـون هـم وأولادهـم وأزواجهـم في الرصيـف، حتـى إذا انتصـف الليـل رجعـوا إلـى منـى، بعـد أن يكونـوا قـد أعـدوا العـدة التـي تشـمل عـد الحصـي في مزدلفـة، وعقـدوا العـزم لمواجهـة الشـيطان معنويـاً وماديـاً. لا عـذر إذن لمـن اسـتهان بهـذه الشـعوب العظيمـة ولا بصيـرة لمـن لـم يتعـرف على كبريائهـم. تُمنـع الباصـات مـن دخـول مزدلفـة، بعـد وقـت معيـن ومـن نقطـة محـددة، فيضطـر الحجيـج إلـى الترجـل مسـافة 7 كيلومتـرات مـن مزدلفـة إلـى منـى، ومـن عـاد عليـك بفضـل ظهـر مـن أهـل المركبـات الخاصـة، فإنـه ربمـا يطرحـك في وجهـة غيـر التـي تطلـب، وقـد يمـن عليـك بأخـذ ولـدك ويتـرك زوجتـك لأنهـا «حُرمـة». أمـا القطـار فقـد خصـص لأجنـاس بعينهـا، ولـم يفتـح بعـد للعـوام! تخيـل أنـك بمجـرد وصولـك مطـار أورلانـدو/فلوريـدا، يقـال لـك أحمـل متاعـك وترجـل أنـت وزوجـك وأولادك، لأن القطـار اليـوم مخصـص للأمريـكان مـن أصـل ايرلنـدي وإنجليـزي، دون الآخريـن. قطعـاً لا يمكـن أن يحـدث هـذا الأمـر في دولـة متقدمـة. مـا بالـك بأمـة تنشـد الريـادة وتدعـي الاصطفـاء؟

كلمـا انتهـت مرحلـة وشـارفت أخـرى، تأكـدت مـن مرتكـزي الأول في التنظيـر لهـذه المقالـة، والـذي مفـاده أنّ مسـؤول الحملـة يتحمـل 15٪ - تلـك المتعلقـة بالإخفـاق السـلوكي- ووزارة

الأوقاف تتحمل 25٪ تلك المتعلقة بالإخفاق السلوكي والمؤسسي أمّا الـ 60 ٪ فتتحملها الدولة المضيفة، وهي تلك المتعلقة بالإخفاقات السلوكية والمؤسسية والبنيوية. ففي عرفة مثلاً، قرر مسئول الحملة التكفل بنقل كل المتأخرين كما أسلفنا (يعني الولد جدع)، فكان أن زادت حمولة البص بصورة تسببت في عطله لساعات، حتى أن كبار السن كاد أن يدركهم الفجر في البص، فيفوت عليهم هذا الركن العظيم. لو أن الدولة المضيفة طبقت خطة علمية للمواصلات، لتم الاستغناء عن الباصات وانعدم العناء منذ زمن بعيد، الذي يسببه الازدحام حال الخروج من عرفة إلى مزدلفة؛ لو أنها- أي الدولة المضيفة - استحدثت خطة طوارئ، لاستطاعت توفير ونشات تزيح العربات المعطلة من الطرقات، وأخريات توفر خدمات «بنشر» وخدمات أولية سريعة، فتخفف الضغط على سائقي الحافلات(وهذا إشكال بنيوي، بمعنى انعدام البنية هو الذي تسبب في المشكلة)؛لو أن سفراء الدولة المضيفة، هيئوا دورات تدريبية واعتمدوا كورسات تأهيلية بالتنسيق مع وزارة الأوقاف في الدولة المعنية، عوضاً عن انشغالهم بالبزنس، أو تنزههم في حفلات الاستقبال (receptions)، لما صعد أمثال هؤلاء المطوفين/ المطففين وزملائهم من مسئولي حملات الحجيج، لأنهم ليسوا إداريين إنما جهلاء متنزهون. عدم توفير مثل هذه الخدمات، يعتبر في حد ذاته إخفاقاً مؤسسياً نتج عنه إخفاق سلوكي، يمكن التعرف عليه بيسر ، من خلال تتبع الخطاب الذي بعثه مسئول حملتنا لمجموعتنا عبر الواتسب في اليوم الأخير . النص أدناه:

«أحبتي الكرام .. حمدا لله على سلامه الوصول . ونسأل الله تعالى أن يتقبل حجكم... اود ان اقول لكم بان هذه السنه التاسعة لوكالتنا في تنظيم وتفويج حجاج القطاع السياحي ولكن للأمانة هذه السنه رغم التعقيدات والإجراءات في ترتيبات هذا العام من دولة المقر والسودان إلا إنني وجدت نفسى متميز تماما عن باقي الوكالات في الترتيب للسفر والعودة والإقامة وقد حرصت أن اشرف بنفسي رغم الرهق والعناء على حجاج مجموعتي...وانوه الى ان بعض القصور الذى لازم السكن في مكة فرضته علينا التأخير في إصدار التأشيرات وتكليف بعض الزملاء في ذلك حسب ضوابط الهيئة

العامة للحج والعمرة بالخرطوم في التشابك والانضمام لأكثر من 127 وكالة في40 منظم فقط .. وقد سعدت بانضمام كوكبه مميزة من الحجاج لمجموعتي لم أجد منهم غير التقدير والاحترام والتعاون والصبر .. كل منكم له في نفسى وقع خاص و أمنيات قلبية بان نبنى علاقة خاصة بكم.. فكنتم معي طيلة 14 يوم اخوه وأخوات كرام .. ولو علمتم بما عاناه كثير من حجاج بعض الوكالات حمتم الله على أن كل شيء او معظمه كان افضل بكثير رغم قناعتي بان الكمال لذي الذى تمنيناه لم يكتمل» (يونس شلبي، مكة المكرمة،29 اغسطس 2018م). انتهى الاقتباس. هذا الخطاب الملتبس والمختلط والمتشابه، لم يشأ أن يتعرض صاحبه بصورة منهجية للإخفاقات إنما أراد تغطيتها بالعبارات. دأبه دأب غيره من المسئولين العرب والمسئولين السودانيين. الأدهى، أنه سبَّنا من حيث أراد تعزيتنا، بقولٍ مفاده أن «الأمور كان يمكن أن تكون أسوأ»! ومع ذلك فأنا أعتبره ضحية فالجاني الحقيقي هو تلك الجهة في الإخفاقات المؤسسية والبنيوية والسلوكية دون أن تعترف بذلك أو تسعى لتغيير سلوكها غير الحضاري وغير الإنساني.

ختاماً، إن كثيرين منا مؤمنون بعقيدة الاسلام، وإلا لما تكبدوا المشاق وذهبوا إلى الحج، لكنني واثق من أنّ ما يحدث أو ما حدث في المناسك هذا العام، ليس له صلة بحكمة مشروعية الحج. ليس فقط من باب الاعتراض على الجوانب الإجرائية، لكنني أيضاً ألحظ غياب الرؤية المفاهيمية، التي لها صلة بالبعد الرمزي للمناسك. نحن «ورِثْنا» لأننا لم نستطع الفكاك من اعتقاد آبائنا، لكنني أتمني ألّا يحذو أبناؤنا حذونا، فيتبعوا منهاجاً دون تفكر أو تدبر، لأنهم إن فعلوا نفروا وكفروا، وهذا ما أخشاه عليهم، فقد زادت نسبة الإلحاد والزندقة مؤخرا لدواعٍ مفهومة لكنها غير مبررة - عجزنا عن تجديد منظومتنا الفقهية، وأخرى غير مفهومة وغير مبررة - فهم الإخفاق على أنه إخفاق فقهي ديني، وليس إخفاقاً سياسياً تنموياً في المقام الأول والأخير.

لا أظن أنّ الدين هو سبب تقهقرنا، إنما أعتقد أن التكلس الذي أصاب همتنا، والعجز الذي أصبح سمة ملازمة لمنهجيتنا في التعاطي مع كافة شؤون حياتنا، هما السبب

في تدهـور أحوالنـا. وإذا شـئت فانظـر في شـأن طفيـف، لكنـه لفيـف (يحيـط بالأمـر مـن جميـع نواحيـه)، وموجـز (يختصـر كثيـراً مـن العبـارة)، ألا وهـو شـأن الهـدي، فالذبائـح ذات الأرقـام المهولـة التـي يمكـن أن تغنـي شـعوباً، يتـم التعامـل معهـا بصـورة عشـوائية لا تتوافـق مـع أبسـط قواعـد الإصحـاح البيئـي، ولا تتماشـى مـع المواصفـات العالميـة للذبـح (راجـع شـريط الفيديـو الدائـر هـذه الأيـام عبـر الواتسـب عـن الذبـح في مسـلخ المعيصـم المركـزي أول أيـام العيـد). النتيجـة فقـدان الدولـة المضيفـة 60٪ مـن قيمـة الهـدي، مـن جـراء التعامـل غيـر العلمـي وغيـر المهنـي مـع الفضـلات، عـدم توفيـر مبـردات ذات سـعة مناسـبة، تؤهـل الدولـة المضيفـة لمعالجـة المخلفـات وإعـادة تصديرهـا، إن لـم يكـن بدافـع الربـح فبدافـع الامتثـال للتوجيـه الربانـي، الـذي مثلـت البُـدن والأنعـام محـوراً أساسـياً في خطابـه الـذي تضمنتـه صـورة الحـج، التـي ربطـت الهدايـة كأعظـم نعمـة بالشـكر، والشـكر بالتسـخير والتسـخير بالإحسـان (**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَـا وَلَا دِمَاؤُهَـا وَلَٰكِـن يَنَالُـهُ التَّقْـوَىٰ مِنكُـمْ كَذَٰلِـكَ سَـخَّرَهَا لَكُـمْ لِتُكَبِّـرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَـا هَدَاكُـمْ وَبَشِّـرِ الْمُحْسِـنِينَ) (سـورة الحـج - الآيـة 37).**

معاناة الحجيج

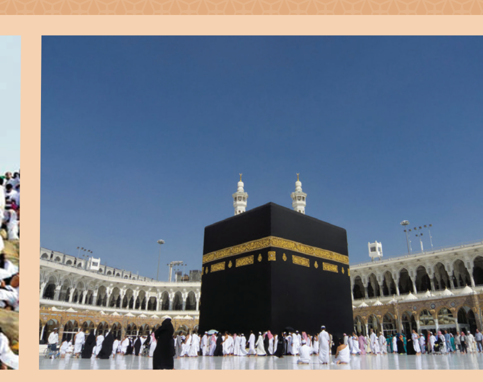
بين المشقة والرهق

(خواطر حاج عام 1439هـ)

معاناة الحجيج
بين المشقة والرهق

(خواطر حاج عام 1439هـ)





لقد ارتضينا لأنفسنا علمانية وجودية، هي أشبه باللائكية (ولا حتى المفاصلة القيصرية: ما لله وما لقيصر)، والتي قادت بعضنا للانفصام، وأوقعت البعض الأخر في الزندقة والإلحاد. السؤال الفلسفي الذي ظللت أكرره على نفسي طيلة أيام الحج: هل يحتاج الفرد المسلم إلى الوعي بالشيء كي يجني ثماره، أم أن الجانب الطقوسي الجماعي قد يكفل انسياب القيم إلى ضمير ذاك الفرد؟ بمعنى أكثر وضوحاً، هل تغييب العقل هو أحد مطلوبات الإيمان، أم أن الاعتقاد يفتح منافذ للذهن غير المتعارف عليها؟ لا أدري، ومن قال لا أدري فقد أفتى.